www.aleppogate.com

هي موجودة ومكتملة ــ في هذا الواحد، أو في زوج آدمي واحد فحسب. والرواية التي يرويها الكتاب المقدس لا تبرر لنا على الإطلاق الآن نتخيل شعباً ما، ووضعاً تاريخياً لهذا الشعب، ونقول أنه كان موجوداً في تلك الصورة البدائية، كلا، ولا هي تكفل لنا أن نعزو لهذا الشعب معرفة مكتملة وتامة بالله وبالطبيعة. إن القصة تسير على النحو التالي: «كانت الطبيعة، وهي أشبه بمرآة صافية للخلق الإلهي، تتكشف، وتنجلي، وتصبح شفافة أمام نظرة الانسان الواضحة»(*). وكان يفترض أن الحقيقة الإلهية تجلّت بذاتها أمام الإنسان بنفس الطريقة، بل لقد ألمح البعض ــ وإن كان هذا التلميح قد ترك بدرجة معينة من الغموض ــ إلى أن الناس في هذه «الحالة البدائية كان لديهم مجموعة منسعة إلى غير حد من الحقائق الدينية التي كشف لهم عنها الله بطريقة مباشرة». وتؤكد هذه النظرية أن البداية التاريخية للديانات جميعاً ترجع إلى هذه المعرفة البدائية، ولكن الحقيقة الأصلية يمكن أن تكون قد فسدت وأظلمت بواسطة البدع الشوهاء الحافلة بالخطأ والفساد، على الرغم من أنه في جميع ألوان الميثولوجيا التي أنتجها الخطأ، توجد آثار يمكن للمرء أن يتعرّف عليها وأن يجدها ماثلة أمامه، لهذا الأصل، ولتلك المعتقدات البدائية الصحيحة. ومن ثم فهناك أهمية كبرى لدراسة الشعوب القديمة، وأعني بها محاولة تعقب أخبارهم خطوة خطوة إلى أن نصل إلى النقطة التي يمكن عندها أن نلتقي بمثل هذه البوادر الأولى للوحي الأول في نقاء أعظم مما نجده في المراحل التالية(**).

(*) فون شليجل: «فلسفة التاريخ» مكتبة Bohn's Standard ص ٩١ (المؤلف).

(**) نحن مدينون لهذا الإهتمام بكثير من المكتشفات القيمة في الأدب الشرقي والدراسة المتجددة للكنوز التي كانت معروفة من قبل حول الثقافة القديمة والميثولوجيا، والديانات، والتاريخ في آسيا، ففي البلاد الكاثوليكية حيث ينتشر تذوق الثقافة الرفيعة تذعن الحكومات لمتطلبات البحث النظري وتشعر بضرورة الارتباط بالعلم والفلسفة. ويفضل بلاغة القسيس لامينيه Abbé Lamennais المقنعة وضعت في عداد معايير الدين الحق، أنه لا بد أن يكون كليا أعني كاثوليكيا، وأن يكون هو الأقدم في التاريخ. ولقد عمل جميع الكرادلة في فرنسا بهمة وحماس حتى لا تكون هذه الآراء مجرد خطب منبرية وأقوال مأثورة، ويكتفى بذلك، كما كان يحدث في الماضي. ولقد جذبت الديانة البوذية، ديانة الإنسان الإله، الإهتمام بانتشارها انتشاراً واسع المدى. ولقد كانت فكرة التيمورتيس (وهي كلمة سنسكريتية تعني الثالوث الهندوسي، وهو يتألف من براهما الخالق، وفيشنو الحافظ، وسيفا المخرب ــ المترجم) Timurtis الهندية ــ وكذلك الفكرة الصينية المجردة عن التثليث Trinity تقدم دليلا واضحاً في هذا الموضوع. فقام العالمان: السيد أبل ريموزا، والسيد سان مارتان، من ناحية بأبحاث قيمة للغاية في =

www.aleppogate.com

وإننا لمدينون بكثير مما له قيمة لذلك الاهتمام الذي أدّى إلى قيام هذه الأبحاث وإنْ كانت هذه الأبحاث تقدم شاهداً ضد نفسها على نحو مباشر، إذْ يبدو كما لو كان من اللازم لما الانتظار إلى أن تتم البرهنة التاريخية على ما تفترضه هي ذاتها مقدماً بوصفه واقعة تاريخية. وعلى ذلك فإن تلك الحالة المتقدمة لمعرفة الله أو لمعارف علمية أخرى متنوعة كالمعرفة الفلكية، على سبيل المثال، (وهي التي تنسب خطأً إلى الهنود)؛ والقول بأن مثل هذه الحالة حدثت في البداية الأولى للتاريخ، أو أنها كانت نقطة الانطلاق التقليدية التي انبثقت منها ديانات الأمم المختلفة، وأنها قد تطورت في اتجاه التحليل والتدهور (وهو ما يتمثل في المذهب المسمى بـ « مذهب الفيض Emanation System » منظوراً إليه بطريقة سطحية)ـ ، كل ذلك ما هو إلّا افتراضات ليس لها أساس تاريخي، ولا يمكن لها أن تكتسب أساساً تاريخياً، لو أننا قارنا بين أصلها الذاتي العفوي، وبين التصور الحقيقي للتاريخ.

والمنهج الوحيد الذي يمكن أن يأخذ به البحث الفلسفي، ويكون متسقاً وذا قيمة، هو تناول التاريخ حينما تبدأ العقلانية VernunftigKeit في التحقق في السلوك الفعلي لشؤون العالم (لا حينما تكون العقلانية مجرد إمكانية لم تتطور بعد) أعني حيث تظهر حالة للأشياء تحقق فيها العقلانية نفسها في الوعي، والإرادة، والفعل. أمّا الوجود اللاعضوي للروح، أعني وجود الحرية المجردة: أو السبات Torpidity اللاواعي بالنسبة للخير والشر (وبالتالي للقوانين) أو « الجهل السعيد »

= لأدب الصيني. وفي ذهنهم أن يكون هذا العمل أساساً لإجراء أبحاث في الأدب المغولي وأدب التبت إنْ كان ذلك ممكناً. كما أن البارون فون ايكشتين، من ناحية أخرى، استخدم طريقته الخاصة (وهي أن يقتبس من ألمانيا تصورات وسمات مادية معينة، على طريقة فردريش فون شليجل، ولكن بعمق أكثر من الأخير) في مجلته « الكاثوليكي » الذي يقدم مبرراً لهذه الكاثوليكية البدائية بصفة عامة. كما أنه ظفر بصفة خاصة بتأييد الحكومة للعلماء في مجمع الكرادلة؛ حتى لقد أرسلت بعثات سيراً على الأقدام إلى الشرق لاكتشاف كنوزه التي لا تزال مخبأة. والتي كانوا يتوقعون منها أن تلقي الضوء على المذاهب والمعتقدات والمسائل اللاهوتية العميقة، وبصفة خاصة على المسائل الموغلة في القدم وعلى مصادر البوذية ولكي يسهموا في خدمة مصالح الكاثوليكية بهذه الطريقة الملتوية، التي تتسم مع ذلك بالطرافة العلمية. (المؤلف).

(ومن الجدير بالملاحظة أن هيجل يهتدي هنا منذ وقت مبكر جداً، إلى دور البعثات التبشيرية، ويكشفها ويفضح مظهرها العلمي السطحي ـ المترجم).

www.aleppogate.com

لو شئنا أن نسميه كذلك ـ فليس هو نفسه موضوعاً للتاريخ. كذلك فإن الأخلاق الطبيعية وفي نفس الوقت الدينية، هي تقوى العائلة، وتكمن الأخلاق في هذه العلاقة الاجتماعية في سلوك الأعضاء إزاء بعضهم بعضا، لا بوصفهم أفراداً يملكون إرادة مستقلة، وليس بوصفهم أشخاصاً. ولذلك فإن العائلة تستبعد من مسار التطور الذي يبدأ فيه ظهور التاريخ. لكن عندما تجاوز هذه الوحدة الروحية التي تتضمن ذاتها، نطاق الوجدان، والحب الطبيعي هذا، وتكتسب للمرة الأولى الوعي بالشخصية، يكون لدينا عندئذ ذلك المركز المعتم المبهم، الذي يستوي فيه الطرفان، والذي لا تكون فيه المطيعة، ولا الروح، واضحة أو شفافة، ولا يمكن فيه للطبيعة، أو الروح، أن تظهر وأن تصبح شفافة، إلاّ بتطور أبعد ـ أي بعملية تثقيف طويلة للغاية لتلك الإرادة عندما تصبح أخيراً واعية بذاتها، فمجرد الوعي وحده، وضوح وجلاء، وهو وحده الذي يمكن أن يتكشّف له الله (أو أي وجود آخر). ولا يمكن لشيء أن يتجلّى في صورته الحقيقية، أعني في كليته المطلقة، إلاّ أمام الوعي المهيأ لإدراكه. وليست الحرية سوى معرفة وإرادة الموضوعات الكلية الجوهرية مثل، الحق، والقانون، وإنتاج واقع حقيقي يطابقهما، هو الدولة.

قد تكون هناك أمم قضت حياة طويلة قبل أن تبلغ هدفها هذا، وربما بلغت خلال هذه الفترة التي قضتها ثقافة لها أهميتها من بعض الوجوه، لكن اتساقاً مع ما سبق أنْ ذكرناه، فإن فترة «ما قبل التاريخ» هذه إنما تقع خارج خطتنا، سواء أعقبها تاريخ حقيقي، أم أن الشعوب التي نتحدث عنها لم تصل قط إلى مرحلة التكوين السياسي، وأنه لاكتشاف عظيم في التاريخ، مماثل لاكتشاف عالم جديد، ذلك الذي تم منذ أكثر قليلا من عشرين سنة، فيما يتعلق باللغة السنسكريتية، وارتباط اللغات الأوروبية بها. فلقد تمت البرهنة بصفة خاصة، وبأكبر قدر من اليقين تسمح به هذه الموضوعات، على ارتباط الشعوب الجرمانية والهندية. ونحن نعرف حتى في الوقت الحاضر أن هناك شعوباً، تشكل بالكاد مجتمعاً، وهي أبعد من ذلك عن تشكيل دولة، لكنها كانت موجودة منذ زمن طويل. على حين أننا بالنسبة لشعوب أخرى، تثير حالتهم المتقدمة اهتمامنا الخاص، يجاوز التراث تاريخ تأسيس الدولة، كما أنها مرت بتغيرات كثيرة سبقت تلك الحقبة. ويمكن أن نرى في ذلك الارتباط الذي أشرنا إليه منذ قليل بين لغات شعوب تفصل بينها مسافات شاسعة، نتيجة تثبت لنا، على نحو قاطع أن تلك الأمم قد انتشرت من آسيا بوصفها مركزاً، كما تبرهن في الوقت نفسه على

www.aleppogate.com

أن ما كان في الأصل مرتبطا، قد تطور على نحو شديد التباين. لكن هذه النتيجة لن تكون مجرد استنباط يتم عن طريق ذلك المنهج المفضل، منهج الجمع بين الأحداث الهامة والأحداث التافهة والوصول إلى استدلالات منها، وهو المنهج الذي أثرى التاريخ بالفعل، وسوف يواصل إثراءه بكثير من الأباطيل التي تُقدّم على أنها وقائع ـ على أن ذلك الحدث الذي يبدو في ذاته هاماً إلى أقصى حد، يقع خارج مجال التاريخ، وهو في الواقع سابق على التاريخ.

إن كلمة التاريخ في لغتنا(٣٥)، تجمع بين الجانب الذاتي والجانب الموضوعي وهي تدل على تاريخ الأشياء الحادثة Historia rerum gestarum، مثلما تدل على الأشياء الحادثة ذاتها Res gestae. وهي، من ناحية أخرى، تشمل ما قد حدث، بقدر ما تشمل رواية ما قد حدث. هذا الجمع بين المعنيين ينبغي أن يعد أكثر من مجرد مصادفة خارجية. فلا بدّ لنا من أن نفترض أن الروايات التاريخية قد ظهرت معاصرة للأفعال والحوادث التاريخية، وما يؤدّي إلى حدوثها في وقت واحد هو مبدأ حيوي باطن مشترك بينها. فالذكريات العائلية، والروايات الأبوية أو البطريركية تنحصر أهميتها في العائلة والقبيلة.

ولا يشكل مجرى الأحداث المطّرد الذي تتضمنه مثل هذه الحالة موضوعاً لذكريات جادة على الرغم من أن الأعمال البارزة أو ضربات الحظ، قد توقظ «منوزين Mnemosyne» (قوة التذكر)ـ لكي تشكل تصورات عنها، بنفس الطريقة التي يثير بها الحب والمشاعر الدينية، الخيال لكي يشكل دوافع سابقة كانت بغير شكل. لكن الدولة هي وحدها أول ما يقدم موضوعاً لا يتلاءم مع كتابة التاريخ فحسب، بل ويجعل مسار وجودها ذاته حافزاً لكتابة مثل هذا التاريخ. ذلك لأن المجتمع الذي يكتسب وجوداً مستقراً، ويرتفع بنفسه إلى مستوى الدولة الذي يحتاج إلى قوانين وأوامر رسمية، أعني إلى قواعد شاملة وملزمة بطريقة كلية، بدلاً من الأوامر الذاتية من جانب الحكام ـ وهي الأوامر

(٣٥) كلمة التاريخ الألمانية Geschichte مشتقة من الفعل Geschehen تعني يحدث، وهي تطلق على ما يحدث من الأفعال والأحداث معاً. فهي تشمل الجانبين الذاتي والموضوعي في وقت واحد. ويفرّق الألمان عادة بين التاريخ Histoire بمعنى تجميع الأخبار والحوادث أو فن التأريخ، وبين التاريخ Geschichte أي التاريخ الذي لا بدّ فيه من وجهة نظر شاملة عن معناه وغايته [المترجم].

www.aleppogate.com

التي تلبي مقتضيات اللحظة الراهنة. وهكذا يأتي هذا المجتمع ليسجل للأفعال والأحداث المعقولة الواضحة ذات النتائج الدائمة، كما يبدي اهتماماً بها، مما يدفع « نموزين » إلى أن تضفي عليها صفة الدوام، تحقيقاً للهدف الدائم في تكوين وإنشاء الدولة. ويمكن القول بوجه عام إن العواطف العميقة، كعاطفة الحب، وكذلك الحدس الديني وتصوراته، وهي في ذاتها تامة وكاملة، تظل موجودة ومرضية على الدوام، أما وجود الدستور السياسي الخارجي الذي تحفظه وتصور قوانينه وعاداته العقلية، فهو حاضر ناقص، ولا يمكن أن يُفهم فهماً عميقاً بغير معرفة الماضي.

إن تلك العصور التاريخية (سواء تصورناها بوصفها قروناً أم ألوفا من السنين) التي انقضت على الأمم قبل أن يُكتب فيها التاريخ، والتي ربما كانت حافلة بالثورات، وبالهجرات، وبأغرب التقلبات، هي من هذه الزاوية نفسها مفتقرة إلى التاريخ الموضوعي، لأنها لا تتضمن أي تاريخ ذاتي، أعني أية أخبار تاريخية. ولسنا بحاجة إلى أن نفترض أن وثائق وسجلات هذه الفترات قد فقدت بالصدفة، بل نقول بالأحرى إننا لم نجد منها شيئاً لأن وجودها لم يكن ممكناً. ذلك لأنه في الدولة وحدها يمكن أن تظهر المعرفة بالقوانين، ويمكن أن تظهر معها أفعال واضحة ومتميزة، يصاحبها وعي واضح بهذه الأفعال، يكسبها القدرة على تسجيلها بصورة دائمة، ويشعرها بضرورة هذا التسجيل. وإنه لما يدهش كل إنسان، في بداية معرفته بكنوز الأدب الهندي ــ أن يجد بلداً غنياً إلى هذا الحد بالإنتاج العقلي، ولديه كل هذا القدر من النظام الفكري العميق، مفتقراً إلى التاريخ، ويقف من هذه الناحية على طرفي نقيض مع الصين، وهي إمبراطورية لها تاريخ موموق، يرتد إلى أغوار العصور السحيقة، فالهند كانت لديها كتب دينية قديمة، بل كان لديها أيضا إنتاج شعري رائع، وقوانين قديمة. ولقد سبق أن ذكرنا أن وجود هذا اللون الأخير من الآداب شرط ضروري لبداية ظهور التاريخ، ومع ذلك لم يوجد فيها تاريخ. لكن الدافع إلى التنظيم في ذلك البلد، مع بداية ظهور الإمتيازات الإجتماعية قد تجمد في الحال في التصنيف المحض وفقا للطوائف المقفلة Castes بحيث أنه على الرغم من أن القوانين تتعلق بالحقوق المدنية، فإنها تقيم هذه الحقوق على أساس الإمتيازات الطبيعية، وتهتم بصفة خاصة بتحديد العلاقات (التي تتعلق بالمحظورات أكثر من تعلقها بالحقوق) بين هذه الطوائف بعضها تجاه البعض الآخر. أعني امتيازات الطبقة العليا على

www.aleppogate.com

الطبقة الدنيا[٣٦]. ومن ثمّ فإن عنصر الأخلاق يُستبعد من أبهّة الحياة الهندية، ومن مؤسساتها السياسية، فحيثما استمد هذا القيد الحديدي للإمتيازات من الطبيعة، فإن الرابطة في المجتمع لن تكون سوى عشوائية هوجاء، ونشاط عابر، أو بالأحرى، انطلاق للانفعال العنيف دون أي هدف للتقدم أو التطور. ومن ثم فليست هناك ذكرى عقلية، ولا موضوع يتمثل أمام آلهة الذكرى «تموزين Mnemosyne». ويهيم الخيال، المضطرب، برغم كونه عميقاً، في الأرض، عاجزاً عن أن ينشىء تاريخاً، ما دام يفتقر إلى غاية داخل مجال الواقع، وداخل الحرية الجوهرية في الوقت نفسه.

وما دامت هذه هي الشروط التي لا مندوحة عنها للتاريخ، فإن تطور الأسر أو العائلات إلى عشائر وقبائل، وتطور القبائل إلى شعوب وانتشارها المحلي نتيجة لهذه الزيادة العددية ـ وهي سلسلة من الوقائع توحي هي نفسها بكثير من التعقيدات الإجتماعية، والحروب، والثورات، والدمار، وعملية مثيرة للاهتمام شاملة وواسعة في مداها قد حدثت دون أن تؤدّي إلى ظهور للتاريخ. وفضلاً عن ذلك فإن هذا التوسع والنمو لمملكة الأصوات المنطوقة قد ظل أبكم الحرس، يختلس تقدماً غير ملحوظ. وهناك حقيقة كشفت عنها وثائق فقه اللغة هي أن هذه اللغات، أثناء الحالة البربرية للأمم التي تنطق بها، قد تطورت تطوراً عالياً،

---

(٣٦) كان نظام الطبقات المقفلة أساسياً في الهند حتى أنه أصبح جزءاً من تكوين العقل الهندي. وهو يقسم المجتمع تقسيماً أفقياً معقداً إلى طبقات أو طوائف لا يستطيع أعضاؤها أن يأكلوا ولا يتزوجوا من أفراد طائفة أدنى منهم، وإلاّ أصبحوا من المنبوذين. وربما حُرم الأعضاء أيضا من طائفتهم عقاباً لهم على أنواع شتى من إهمال الطقوس والدنس. وإذا فقد الرجل طائفته لم ينحط في طائفة أدنى منها بل يصبح طريداً منبوذاً. ويصبح المرء حسب مولده عضواً في طبقته. فالتقسيم هنا طبيعي حتى أن الكلمة الهندية التي تعني طائفة هي «فارنا» أي اللون والطوائف الرئيسية الأربع هي: «البراهمة» وهم الكهنة والمعلمون وأصحاب الإمتيازات الكبرى على سائر الطوائف الأخرى؛ ثم طبقة «الكاشاترية» وهم المحاربون وكان لهم سلطان على الميدان الفكري والسياسي في عهد بوذا. ثم طبقة «الفيزيا» وهم الرعاة، ثم هناك «الشودرا» وهي أدنى الطبقات لا يقل عنها سوى طبقة «البارية» المنبوذين من خارج الطوائف الأخرى. وقد حدد تشريع «مانوا» الذي يرجع إلى سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد هذا النظام الطبقي الذي لا تمتزج فيه طبقة بطبقة أخرى. وقد جاء فيه: «إن الرجل الطيب العنصر بمولده إنما يفسد عنصره بمصاحبة الأدنين. أمّا من كان دنيّاً بمولده فيستحيل أن يسمو بصحبة الأعلين» (المترجم).

www.aleppogate.com

وأن الفهم البشري احتل هذا المجال النظري بقدر عظيم من العمق والاكتمال. ذلك لأن النحو، في صورته المتسعة والمتسقة، هو عمل للفكر الذي يكشف فيه عن مقولاته بوضوح. وهناك حقيقة أخرى هي أن تقدم الحضارة السياسية والإجتماعية يصيب هذا الاكتمال النسقي للذهن بالانهاك، وتصبح اللغة بذلك أكثر فقراً وغلظة! وإنها لظاهرة فريدة تلك التي يعمل فيها التقدم نحو حالة عقلية أرقى على نشر العقلانية وصقلها، ولكنه يتجاهل ذلك الثراء العقلي والمقدرة التعبيرية، ويجد فيها عائقاً، ويلتمس وسيلة لكي يستغني عنه. إن الكلام أو اللغة، هو فعل من أفعال الذكاء النظري بمعنى خاص لهذا اللفظ، فهو التجلي الخارجي لهذا الذكاء. أمّا نشاط الذاكرة والخيال فهو تجلٍ مباشر (غير نظري). غير أن فعل الذكاء النظري هذا، نفسه، شأنه شأن تطوره اللاحق وفئة الوقائع الأكثر عبقرية التي ترتبط به ــ أعني انتشار الشعوب على سطح الارض، وانفصالها بعضها عن بعض، وامتزاجها، وتجوالها ــ يظل ملفوفاً بغلالة غامضة من الماضي الأخرس. فليست هذه افعالا للارادة وقد أصبحت واعية بذاتها، أي للحرية وهي تعكس ذاتها على شكل ظاهرة، وتخلق لنفسها واقعاً مناسباً، بل إن هذه الأمم، لأنها لا تشارك في عنصر الوجود الجوهري الحقيقي هذا، لم تتقدم قط بحيث يكون لها تاريخ، رغم تطور اللغة بينها، فالنمو السريع للغة وتقدم الأمم وانتشارها لا تكون له أهمية وقيمة في نظر العقل العيني إلّا حين تصبح على اتصال مباشر بالدولة، أو حين تبدأ في تكوين التنظيمات السياسية ذاتها.

(ج) ينبغي علينا، بعد هذه الملاحظات حول الشكل الذي تتخذه بداية تاريخ العالم، وحول فترة ما قبل التاريخ التي ينبغي استبعادها منه، أن ندرس عن كثب اتجاه مسار التاريخ، رغم أننا لن ندرسه هنا إلّا من الناحية الصورية. وسوف نصل فيما بعد إلى تحديد أكثر عينية لهذا الموضوع من خلال طريقة تنظيم الموضوع وتبويبه.

يكشف لنا التاريخ الكلي، كما سبق أن برهنا، عن تطور الوعي بالحرية من جانب الروح، وما يترتب عليه من تحقق فعلي لهذه الحرية. وهذا التطور يتضمن تدرجاً، أي سلسلة من التعبيرات أو التجليات المتزايدة الكفاية للحرية، التي تنتج من فكرتها، وقد سبق أن عرضنا في الجزء الخاص بالمنطق الطبيعة المنطقية أو ربما قلنا أفضل: الطبيعة الجدلية للفكرة بصفة عامة أعني كونها تحدد نفسها بنفسها، وتتخذ صوراً متعاقبة تتجاوزها على التعاقب وعن طريق عملية التجاوز

www.aleppogate.com

ذاتها هذه للمراحل السابقة تكتسب طابعاً إيجابياً وأكثر غنى وعينية في الواقع. كما عرضنا لهذه الضرورة في طبيعتها، وللسلسلة الضرورية من الصور المجردة الخالصة التي تتخذها الفكرة على التعاقب. ونحن لا نحتاج هنا إلّا إلى أن نأخذ نتيجة واحدة فحسب من نتائج هذا العرض المنطقي، وأعني بها كل خطوة من الخطوات في طريق السير، من حيث أنها تختلف عن الخطوة الأخرى. لها مبدؤها الجزئي المعين الخاص بها. وهذا المبدأ في التاريخ هو خاصية الروح، هو العبقرية القومية الخاصة بأمة من الأمم. وداخل حدود هذه الخاصية تعبر روح الأمة، في تجليها العيني، عن كل جانب من جوانب وعي الأمة وإرادتها، أي على النطاق الكامل لتحققها الفعلي: فدينها، ونظمها السياسية، وأخلاقها، وتشريعها، بل وحتى علمها وفنها، ومستوى مهارتها الفنية ــ ذلك كله يحمل طابعها المميز. ويكمن مفتاح هذه الخصائص الجزئية الخاصة في تلك الخاصية العامة المشتركة، أي المبدأ الخاص الذي يسم بسماته شعباً ما، مثلما يمكن، من ناحية أخرى، كشف ذلك المبدأ العام المميز في الوقائع التي يعرضها التاريخ بالتفصيل. أمّا القول بأن هذه السمة المعينة أو تلك هي التي تكون روح شعب من الشعوب، فهذا هو الجانب من جوانب بحثنا الذي ينبغي أن يستمد من التجربة، وأن يبرهن عليه تاريخيا. ولا بدّ للباحث أن يلمّ بطريقة قبلية apriori (إذا ما فضلنا تسميتها على هذا النحو) بكل مجال التصورات الذي تنتمي إليه المبادىء التي نتحدث عنها، مثلما أن كبلر Keppler،[٣٧] (إذا ما أردنا أن

(٣٧) يوهانس كبلر ١٥٧١ ــ ١٦٣٠ Johannes Keppler عالم فلكي ألماني ولد في فيل Weil في مقاطعة فورتمبرج، وتلقى تعليمه بمدينة توبنجين حيث تأثر بقوة بمبادىء كوبرنيكس. عمل فترة مساعداً لتيكو براهي Tycho Brahe في مرصده قرب براغ عام ١٦٠٠. وقد تعلم كبلر من براهي أن يخضع أبحاثه في الطبيعة والفلك للحساب الرياضي الشديد والملاحظة الدقيقة للحوادث، وكان براهي قد أثبت استحالة حساب مسارات الكواكب بالاستناد إلى الحركات الدائرية كما فعل كوبرنيكس، وعلى ذلك أخذ كبلر في تجربة مدارات جديدة مرة بعد أخرى، ثم جرب ثانية أن يأخذ ــ لا دائرة ــ وإنما منحنيا بيضاويا محاولا تطبيق المعلومات عن المريخ على مسار بيضاوي الشكل. وأخذ بعد ذلك أبسط شكل للمنحني وهو القطع الناقص فنجح اختباره. وثبت هذا النجاح إيمانه بما يسميه « بساطة الطبيعة، وانتظامها المتسق » فقد كشف أخيرا الشكل الصحيح لمسار الكواكب وهو: قطع ناقص تقع الشمس في احد مركزيه ثم أخذ في البحث عن القانون الثاني الذي يحدد مقدار تغير حركة الكواكب فتوصل إلى قانونه الثاني وهو أن نصف القطر الواصل بين الشمس وكوكب ما يمسح سطوحاً متساوية في أزمنة متساوية. ثم وضع قانونه الثالث وهو يعبر عن العلاقة =

www.aleppogate.com

نذكر أفضل مثل لذلك النمط من التفلسف) لا بدّ أنه كان ملمًّا بطريقة قَبْلية بأشكال مثل: القطع الناقص، والمكعبات، والمربعات، والأفكار الخاصة بعلاقة هذه الأشكال، قبل أن يتمكن من اكتشاف « قوانينه » الخالدة من المعطيات التجريبية، وهي القوانين التي ليست سوى أشكال الفكر المتعلقة بتلك الفئة من التصورات. أمّا مَنْ لم يلم بالعلم الذي يشتمل على هذه التصورات الأولية، المجردة، فإنه ــ حتى لو ظل يحدّق في قبة السماء الزرقاء، وفي حركات الأجرام السماوية طوال حياته ــ سيظل عاجزاً عن فهم تلك القوانين بقدر ما هو عاجز عن اكتشافها. والواقع أن هذا الافتقار إلى الإلمام بالأفكار المرتبطة بتطور الحرية، هو مصدر جانب من تلك الاعتراضات التي تُساق ضد التناول الفلسفي لعلم جرت العادة أن يُنظَر إليه على أنه أحد علوم التجربة فحسب، بحيث تكون النقاط الرئيسية في مثل هذا الاتهام هي ما يُسمّى بالمنهج القَبْلي apriori، ومحاولة اقحام أفكار في المعطيات التجريبية للتاريخ. فحيثما يوجد مثل هذا القصور، تبدو أمثال هذه التصورات غريبة وخارجة عن نطاق البحث. فبالنسبة إلى أولئك الذين كان تكوينهم الذهني ضيقاً وذاتيا فحسب، أولئك الذين لا علم لهم ولا إلمام بهذه الأفكار ــ تكون هذه التصورات شيئاً غريبا، شيئا لا تتضمنه فكرة الموضوع أو تصوره الذي تشكله عقولهم المحدودة: ومن هنا يأتي اتهام الفلسفة بأنها لا تفهم هذه العلوم؛ والواقع أن الفلسفة لا بدّ أن تعترف بأنها لا تملك ذلك اللون من الفهم الذي يسير في نطاق تلك العلوم، وبأنها لا تسير وفقاً لمقولات مثل هذا الفهم، وإنما هي تسير طبقاً لمقولات العقل Vernuft ــ هذا مع اعترافها في الوقت نفسه بهذا الفهم وبقيمته ومركزه الحقيقي. ولا بدّ لنا من أن نلاحظ أن من المهم، في عملية الفهم العلمي هذه نفسها، أن نميز الجوهري ونبرزه، في مقابل غير الجوهري. لكن لا بدّ لنا أن نعرف ــ لكي نجعل هذا العمل ممكناً ــ ما هو الجوهري، وهو ــ بالنسبة إلى تاريخ العالم بصفة عامة ــ الوعي بالحرية والمراحل التي يتخذها هذا الوعي في تطويره لنفسه، فعلاقة الوقائع التاريخية بهذه المقولة هي ذاتها علاقتها بما هو جوهري حقاً.

لا بدّ، إذنْ، أن يرد جانب من المشكلات التي ظهرت والاعتراضات التي أثيرت حول التصورات الشاملة للعلم ــ إلى العجز عن إدراك الأفكار وفهمها ــ

= الرياضية بين الزمن اللازم لدوران كوكب ما حول الشمس دورة كاملة وبعده عنها [المترجم]

www.aleppogate.com

فإذا ما أُثير اعتراض، في ميدان التاريخ الطبيعي، على إمكان التعرّف على أنواع وصنوف واضحة ومتميزة على أساس وجود نمو مهجن مشوه، فإن الرد المقنع على هذا الاعتراض يقدمه رأي يلحُّ علينا عادة في غموض هو أن « الاستثناء يؤكد القاعدة » أعني أن دور القاعدة المحددة تحديداً جيداً: هو أن تبين الشروط التي تطبق فيها، أو قصور او تهجن الحالات غير السوية. فالطبيعة وحدها أعجز من أن تحافظ على أجناسها وأنواعها في حالة نقاء حين تتصارع مع مؤثرات أولية غريبة. فلو أننا ـ مثلا ـ ونحن نتناول الكائن العضوي البشري في جانبه العيني أكدنا أن المخ والقلب وما إليهما عناصر جوهرية لحياته العضوية، فإننا يمكن أن نجد أمثلة لأجسام شائهة تتخذ في النهاية شكل الإنسان بصفة عامة أو أجزاء منه، ولدت في جسم بشري، واستمرت تتنفس بعد الميلاد ـ ولا يوجد بها مع ذلك قلب ولا مخ. ولو استشهد بهذا المثال ضد التصور العام للموجود البشري وأصرَّ المعترض على استخدام الاسم مقترناً بفكرة سطحية عنه، فيمكن البرهنة على أن الموجود البشري العيني الحقيقي هو شيء مختلف عن ذلك حقاً، وأن مثل هذا الموجود يمتلك مخا في رأسه وقلباً في صدره.

وتتبع عملية استدلال مشابهة فيما يتعلق بالحكم الصحيح الذي يقول إن العبقرية والموهبة، والفضائل الأخلاقية، والعواطف، والورع، يمكن أن توجد في كل مكان، وفي ظل اي تنظيم وظروف سياسية، وهو رأي سوف نجد فيما بعد أمثلة وفيرة تؤيده. ولو تعمّد المرء أن ينكر أهمية الفروق المصاحبة، عند إصداره هذا الحكم، فمن الواضح أن الفكر في هذه الحالة يقتصر على المقولات المجردة، ويتجاهل السمات الخاصة في الموضوع الذي ندرسه، وهي السمات التي لا تندرج يقينا، تحت أي مبدأ تعترف به هذه المقولات. هذا الموقف العقلي الذي يأخذ بوجهات النظر التصورية البحتة هذه، يمثل مجالا واسعا لأسئلة بارعة، ونظرات ثاقبة، ومقارنات مثيرة، ولأفكار، وأقوال تبدو عميقة، ويمكن أن تزداد روعة بقدر ما يكون الموضوع الذي نشير إليه غامضا غير محدد؛ كما يمكن أن تتخذ أشكالا تزداد تنوعا وتجدداً بقدر ما تقل أهمية النتائج التي يمكن أن نظفر بها منها، ويقل يقين نتائجها وعقلانيتها. ومن هذا المنظور يمكن أن نقارن بين الملاحم الهندية الشهيرة وبين ملاحم هوميروس، وربما فضلنا الأولى على الثانية، ما دامت عظمة الخيال هي التي تبرهن على العبقرية الشعرية. كما قيل انه من الممكن التعرّف على بعض أشكال الأساطير اليونانية في نظيرتها عند الهنود، على أساس تشابه لمحات فردية من الخيال في الصفات التي تُعزى للآلهة. وبالمثل فقد

www.aleppogate.com

قيل: إنه لما كانت الفلسفة الصينية تقوم على فكرة الواحد بوصفها أساسا لها، فإنها هي نفسها الفلسفة التي ظهرت في بلاد اليونان في فترة لاحقة باسم الفلسفة الايلية Eleatic، وهي أيضاً مذهب اسبينوزا Spinoza . كما قيل إنه يمكن اكتشاف المبادىء الفيثاغورية والمسيحية فيها، لأنها تعبر عن نفسها أيضا بأعداد وخطوط مجردة، كذلك نُظر إلى وجود أمثلة للبسالة والشجاعة التي لا تقهر، وسمات الشهامة، وإنكار الذات، والتضحية بالنفس، بين أشد الأمم همجية وأكثرها جبنا ــ على أنه يكفي لدعم وجهة النظر التي تقول إن لدى هذه الأمم من الفضائل الإجتماعية والأخلاقية مثليها يوجد لدى أكثر الدول المسيحية تحضراً، وربما أكثر منها. وعلى هذا الأساس أثير الشك فيما إذا كان تقدم التاريخ والثقافة قد جعل الجنس البشري أفضل مما كان عليه، وعما إذا كانت أخلاقيته قد ازدادت ــ وأنا أعني هنا الأخلاق منظوراً إليها من زاوية ذاتية، وبوصفها قائمة على ما يراه الفاعل صوابا وخطأ، خيراً وشراً، لا على أساس مبدأ ينظر إليه على أنه في ذاته ولذاته صواب وخير، أو جريمة وشر، أو على أساس دين معين يعتقد أنه هو الدين الصحيح.

وفي استطاعتنا هنا أن نرفض، عن حق، مواصلة تتبع مثل هذه النظرة بما تتسم به من صورية وبطلان، وأن نمتنع عن إقامة المبادىء السليمة للأخلاق، أو بالأحرى، الفضيلة الإجتماعية، في مقابل الأخلاق الزائفة. ذلك لأن التاريخ الكلي يشغل مجالا أعلى من المجال الذي تشغله الأخلاق، وهو الخلق الشخصي، أو ضمير الأفراد، وإرادتهم الجزئية الخاصة، وطريقتهم في السلوك. هذه العوامل لها قيمة، ومثالب، وثواب وعقاب خاص بها. غير أن ما تتطلبه الغاية المطلقة للروح وتنجزه، وما تفعله العناية الإلهية Providence يتجاوز الالتزامات والتعرض للإدانة، ونسبة البواعث الخيرة والشريرة، التي تلحق بالشخصية الفردية بفضل علاقاتها الإجتماعية. صحيح أن أولئك الذين يقاومون ــ على أسس أخلاقية، وبالتالي بنية طيبة ــ ذلك الذي يجعله تقدم الفكرة الروحية ضروريا، إنما يكونون من حيث قيمتهم الأخلاقية في مركز أعلى من أولئك الذين تحولت جرأتهم إلى وسائل، بتوجيه مبدأ أعلى لتحقيق أغراض ذلك المبدأ. لكن كلا الفريقين في مثل هذه التمردات يوجد بصفة عامة في نطاق دائرة واحدة من الوجود العابر الفاسد، وبالتالي فإن ما يتمسك به أولئك الذين يدافعون عن الحق والنظام القديمين هو استقامة صورية فحسب، تخلى عنها الروح الحي، وتخلى عنها الله. وعلى هذا

www.aleppogate.com

النحو فإن أعمال عظماء الرجال الذين هم أفراد تاريخ العالم، لا يكون لها ما يبررها من زاوية النتيجة الداخلية الذاتية التي لا يشعرون بها فحسب، بل أيضا من وجهة النظر التي تشغلها الأخلاق الدنيوية، لكننا إذا ما نظرنا إلى القضايا الأخلاقية من هذه الوجهة من النظر، فمن الواجب ألاّ نجعل الاعتبارات الأخلاقية الخارجة عن الموضوع، تصطدم بأفعال تاريخ العالم ومنجزاتها، ومن الواجب ألاّ تُثار ابتهالات الفضائل الخاصة، من تواضع وخشوع، وحب للناس، وتذرع بالصبر ــ ضد هذه الأفعال. ويمكن للتاريخ الكلي، من حيث المبدأ، أن يتجاهل تماما المجال الذي توجد فيه الأخلاق، والتفرقة التي يكثر الحديث عنها بين ما هو أخلاقي وما هو سياسي، ليس فقط بامتناعه عن الحكم، إذ أن المبادىء المتضمنة، وضرورة رد الأعمال التي نتحدث عنها إلى تلك المبادىء هي حكم كاف عليها ــ وإنما بترك هؤلاء الأفراد جانبا دون أي فكر لهم. إذْ أن ما يتعين على هذا التاريخ العالمي تسجيله هو نشاط الشعوب، بحيث أن الأشكال الفردية التي تتخذها تلك الروح في مجال عالم الواقع الخارجي، يمكن أن تترك لكي ترسمها وتحدد معالمها التواريخ الخاصة.

ونفس هذا اللون من النزعة الشكلية يبدي بطريقته الخاصة، اهتماماً بأمور غامضة كالعبقرية، والشعر، وحتى الفلسفة. ويعتقد أنها موجودة في كل مكان. وهذه كلها نواتج للفكر النظري، بحيث أن ما نسميه بالثقافة إنما هو الإلمام بتلك التصورات العامة التي تحدد الفروق الحقيقية، دون أن تسبر الغور الحقيقي للموضوع. هذه الثقافة شيء صوري فحسب، إذْ هي لا تستهدف سوى تحليل الموضوع، أيّاً كان، إلى عناصره المكونة، وإلى فهم هذه العناصر في صورها وتعريفاتها المنطقية. ولكنها ليست تلك النظرة الكلية الحرة اللازمة لجعل المبدأ المجرد موضوعاً للوعي. فمثل هذا الوعي بالفكر ذاته، بصورة معزولة عن أي هدف جزئي معين هو الفلسفة، التي تجد شروط وجودها، في الواقع، في مجال الثقافة، إذْ أن هذا الشرط هو تناول موضوع الفكر، وإضفاء طابع الكلية عليه في الوقت ذاته، بحيث يدرك المضمون المادي والصورة المعطاة بواسطة العقل في وحدة تبلغ من الوثوق والإحكام حدّاً يجعلنا ننظر إلى الموضوع الذي ندرسه ــ والذي يتسع ويكتسب ثراءً فكريا لا حدّ له عن طريق تحليل تصور واحد إلى مجموعة كبيرة من التصورات ــ ننظر إليه على أنه مجرد معطى تجريبي لا يشارك الفكر في تكوينه بأي نصيب.

www.aleppogate.com

غير أن ضم موضوع يحوي في جوفه مغزى عينياً واسعاً (مثل: الارض، الانسان، الاسكندر أو قيصر) في تصور واحد بسيط، والإشارة إليه بكلمة واحدة، هو فعل من أفعال الفكر، وعلى وجه الخصوص من أعمال الفهم، بدرجة لا تقل عن حل مثل هذا التصور ــ وعزل التصورات التي يتضمنها بالفكر، واعطائها أسماء جزئية خاصة. أمّا فيما يتعلق بالرأي الذي قلناه بصدد ما قلناه الآن، فسوف يكون واضحاً، أنه لما كان الفكر ينتج ما أدرجناه تحت ألفاظ عامة مثل: العبقرية، والموهبة، والفن، والعلم، فإن الثقافة الصورية في كل مرحلة من مراحل التطور الفكري يمكنها، بل يجب عليها، أن تستمر في النمو، وتبلغ مرحلة التفتح الناضج، حين تتطور المرحلة التي نتحدث عنها حتى تصبح دولة، وتتقدم على هذا الأساس من أسس الحضارة، نحو التفكير العاقل، ونحو صور عامة للفكر، في القوانين، وكذلك في كل شكل آخر. ففي ارتباط الناس بعضهم ببعض داخل الدولة تكمن ضرورة الثقافة الصورية، وبالتالي ظهور العلوم، والشعر، والفن الراقي بصفة عامة، ذلك لأن الفنون التي تسمى باسم الفنون « التشكيلية Plastic » تتطلب، فضلا عن ذلك، وحتى في جانبها التطبيقي، حياة الناس في مجتمع. أمّا فن الشعر، الذي هو أقل حاجة إلى المتطلبات والوسائل الخارجية، والذي يتخذ مادته من عنصر الوجود: وهو الصوت ــ يسير قُدُماً بجرأة عظيمة وبقدرة ناضجة على التعبير، حتى في الظروف التي لا يكون فيها الشعب قد اتحد في تجمع سياسي بعد؛ ما دامت اللغة، كما أشرنا من قبل، تصل في ميدانها الخاص إلى تطور روحي عال حتى قبل بداية الحضارة.

كذلك، لا بدّ للفلسفة أن تظهر حيثما توجد الحياة السياسية، ما دام ذلك الشيء الذي تُدرَج بفضله أية سلسلة من الظواهر في نطاق هو، كما سبق أن ذكرنا، تلك الصورة الملائمة للفكر. وعلى ذلك فان الفلسفة، التي ليست سوى الوعي بهذه الصورة، أو فكر الفكر، ترى أن الثقافة بصفة عامة تجهز لها بالفعل الأدوات التي تشيد بواسطتها صرحها. فإذا تعين أن تظهر، خلال تطور الدولة، حقب تاريخية تضطر فيها النفوس النبيلة إلى الهروب من الحاضر لتجد ملاذها في مناطق مثالية، عسى أن تجد فيها ذلك الانسجام مع ذاتها، الذي لم تعد تتمتع به في عالم الواقع الممزق الذي يهاجم فيه الذكاء النظري كل ما هو مقدس وعميق مما يظهر بطريقة تلقائية في الدين، وكذلك في سنن الشعوب وقوانينها، ويضعفه

www.aleppogate.com

ويهبط به إلى مستوى العموميات المجردة المجدفة ــ أقول إنه لو ظهرت حقب كهذه لاضطر الفكر إلى أن يتحول إلى عقل مفكر بهدف أن يعمل، عن طريق عنصره الخاص، على استعادة مبادئه وانتشالها من الدمار الذي لحقها.

من الصواب، إذنْ، أن نقول: إننا نجد بين جميع شعوب التاريخ في العالم، الشعر، والفن التشكيلي، والعلم، وحتى الفلسفة، ولكن مع وجود اختلافات لا تقتصر على الأسلوب والدلالة بصفة عامة، بل، بصورة أوضح، في المضمون بدوره. وهذا الأخير اختلاف بالغ الأهمية يتعلق بمقلانية ذلك المضمون. فمن العبث أن يطالب النقد الجمالي المزعوم ألاّ يكون المحتوى، أي الجانب الجوهري للمضمون، هو الذي يتحكم في لذاتنا النبيلة ــ بل إن ما تستهدفه الفنون الجميلة، هو الشكل الجمالي بما هو كذلك، أو عظمة الخيال، وما إلى ذلك، وأن هذه الأمور هي التي تثير اهتمام الذوق المتحرر والذهن المصقول وتبعث المتعة فيهما فالعقل السليم لا يستطيع أن يتحمل أمثال هذه التجريدات، ولا يمكن أن يتمثل نواتج من ذلك النوع الذي أشرنا إليه. فلو فرضنا جدلاً أن الملاحم الهندية يمكن أن توضع على مستوى واحد مع الملاحم الهومرية على أساس مجموعة معينة من خصائص الشكل، مثل عظمة الابتكار، وقوة الخيال، وحيوية الصور والانفعالات، وجمال الأسلوب، لكن مع ذلك سوف يظل الاختلاف اللامتناهي بينهما في المضمون قائمًا كما هو، وبالتالي فان جانبا جوهريا يثير اهتمام العقلي، الذي يهتم مباشرة بالوعي بفكرة الحرية، وبالتعبير عنها في الأفراد، يظل الاختلاف فيه قائما. فليس هناك فحسب شكل كلاسيكي، بل هناك أيضا مضمون كلاسيكي. وفي الأعمال الفنية يرتبط الشكل بالمضمون ارتباطاً يبلغ من الوثوق حداً لا يمكن معه أن يكون الشكل كلاسيكيا إلاّ بقدر ما يكون المضمون كذلك. فعندما تكون المادة مسرفة في الخيال، غير متعينة ــ والقاعدة المتقنة هي ماهية العقل ــ تصبح الصورة بغير أبعاد واضحة مختلة الشكل، أو تصبح وضيعة مزرية. وبالمثل، ففي المقارنة بين مختلف المذاهب الفلسفية، التي تحدثنا عنها من قبل، لا يعمل حساب لأهم النقاط جميعا، وأعني بها تحديد نوع تلك الوحدة التي نجدها متشابهة في الفلسفة الصينية، والفلسفة الإيلية، والفلسفة الاسبينوزية في وقت واحد ــ أعني التمييز بين الاعتراف بهذه الوحدة بوصفها وحدة مجردة أو بوصفها وحدة عينية ــ وهي في هذه الحالة عينية بمقدار ما تكون وحدة في ذاتها ولذاتها ــ وحدة مرادفة للروح. لكن تلك التسوية بين الفلسفات الثلاث تثبت أنها لا تعترف إلاّ بهذه الوحدة المجردة، بحيث أنها في الوقت الذي تصدر فيه

www.aleppogate.com

حكما على الفلسفة تجهل تلك النقطة التي هي على وجه الدقة مناط اهتمام الفلسفة.

لكن هناك أيضا مجالات تبقى كما هي على حالها وسط كل تنوع وتغير يمثله المضمون الجوهري لأي شكل خاص من أشكال الثقافة. فالفرق الذي ذكرناه فيما سبق، والخاص بالفن، والعلم، والفلسفة، يتعلق بالعقل المفكر والحرية التي هي الوعي الذاتي للعقل، والتي هما نفس جذور الفكر. وما دام الحيوان الأعجم لا يفكر، وإنما الإنسان وحده هو الذي يفعل ذلك، فإن الانسان وحده هو الذي يمتلك الحرية ــ وما ذلك إلا لأنه موجود يفكر، فوعيه يتضمن أن الفرد يدرك ذاته بوصفه شخصا، أعني يتعرّف على ذاته في وجوده المفرد على أنه يمتلك الكلية، وعلى أنه قادر على التجرّد من كل خصوصية، والتخلي عنها، وبالتالي فهو في ذاته لا متناه. ومن ثم فإن مجالات التعقل التي تجاوز حدود هذا الوعي هي أساس مشترك بين تلك الفروق الجوهرية. وحتى الأخلاق التي ترتبط ارتباطا وثيقا للغاية بالوعي بالحرية يمكن أن تكون خالصة تماما حتى في الوقت الذي يظل الوعي فيه ناقصا، وذلك بقدر ما تعبر عن الواجبات والحقوق بوصفها أوامر موضوعية فحسب، أو حتى بمقدار ما تظل قائمة بالسمو الشكلي للنفس فحسب ــ كالزهد فيما هو حسي، والبعد عن البواعث الحسية جميعا بطريقة سلبية خالصة فيها عزوف ذاتي.

وهكذا رأينا الأخلاق الصينية ــ منذ أن عرفها الأوروبيون واتصلوا بها وبكتابات كونفوشيوس ــ تحظى بأكبر قدر من الثناء والاهتمام من جانب أولئك الذين يعرفون الأخلاق المسيحية. وهناك اعتراف مماثل بالجلال الذي أسهب به الدين والشعر الهندي، والفلسفة الهندية بوجه خاص، وأطنب في المطالبة بازالة الجانب الحسي والتضحية به (وهو حكم ينبغي أن يكون قاصراً على أية حال على الصور العليا للدين والشعر والفلسفة). ومع ذلك فإن هاتين الأمتين تفتقران ــ وهذا ما لا بدّ أن نعترف به ــ إلى الوعي الجوهري بفكرة الحرية افتقاراً تاماً: فبالنسبة للصينيين تعد قوانينهم مماثلة تماما للقوانين الطبيعية فهي أوامر اجابية خارجية، ومطالب توطّدت عن طريق القوة، وواجبات ملزمة أو آداب للياقة يطبقونها نحو بعضهم البعض، أمّا الحرية التي عن طريقها وحدها تصبح للتحديدات الجوهرية للعقل مشاعر أخلاقية، فإنهم يفتقرون إليها ــ فالأخلاق مسألة سياسية، يشرف على تطبيق قوانينها موظفو الدولة، والمحاكم القانونية،

www.aleppogate.com

ومؤلفاتهم عنها (وهي ليست كتبا في القانون، وإنما هي أحاديث تخاطب الارادة الذاتية والاستعداد الفردي) تتخذ، مثل الكتابات الأخلاقية عند الرواقية، طابع سلسلة من الوصايا التي توصف بأنها ضرورية من أجل تحقيق هدف السعادة. وهكذا تبدو كأنها تترك للناس حرية الأخذ بهذه الوصايا ومراعاتها أو عدم الالتزام بها؛ على حين أن تصور ذات مجردة أي « رجل حكيم Sapiens » يمثل القمة العليا عند الصينيين، كما هي الحال عند فلاسفة الأخلاق الرواقيين. وبالمثل ففي المذاهب الهندية المتعلقة بالزهد في الرغبات الحسية، والإهتمامات الدنيوية. لا يكون الهدف والغاية عندهم هو الحرية الأخلاقية الإيجابية، وإنما هو تلاشي الوعي وانعدام الحياة الروحية بل والجسمية.

إنما ما ينبغي علينا أن نتعرّف عليه بدقة هو الروح العيني لشعب ما، وما دام روحا فلا يمكن إدراكه إلاّ بطريقة روحية، أعني عن طريق الفكر. وهذا الروح، هو وحده الذي يتجلّى في جميع أعمال ونزعات ذلك الشعب، وهو الذي يجاهد لكي يحقق نفسه، ولكي يحقق مثله الأعلى، ويصبح واعيا بذاته، ذلك لأن مهمته الكبرى هي إنتاج ذاته. لكن أعظم إنجاز يمكن أن تحققه الروح هو أن تعرف ذاتها، وأن ترقى إلى تصور واضح لنفسها لا بالحَدْس فحسب، بل بالفكر أيضا وهذا ما لابدّ للروح أن تنجزه وما هو مقدر لها أن تنجزه لكن الإنجاز يعني في الوقت نفسه انحلالها وظهور روح أخرى، وشعب آخر من شعوب تاريخ العالم، وحقبة أخرى من التاريخ الكلي. وهذا الإنتقال وهذا الإتصال يقودنا إلى اتصال الكل، أو الرابطة التي توحّد بين الجميع — أعني فكرة تاريخ العالم بما هو كذلك، وهي التي علينا الآن أن نتناولها بالدراسة عن كثب ونقدّم فكرة عنها.

وإذنْ فالتاريخ هو، بصفة عامة، تطور الروح في الزمان، كما أن الطبيعة هي تطور الفكرة في المكان.

ولو أننا ألقينا نظرة على تاريخ العالم، بصفة عامة، لرأينا مشهداً هائلاً من التغيرات والأفعال، وأشكالاً متعددة تعدداً لا نهاية له من الشعوب والدول والأفراد في تعاقب مستمر لا ينقطع. فيمكن للمرء أن يجد فيه كل ما يمكن أن يتغلغل في النفس البشرية ويثير اهتمامها — كل إحساسنا بالخير والجمال والعظمة: ففي كل مكان يتبنى الناس ويستهدفون أهدافاً، وهي غايات نعترف بها ونرغب في تحقيقها، ونأمل فيها ونخاف عليها. وفي جميع هذه الأحداث والتغيرات نرى الفعل البشري، والعذاب البشري مسيطراً؛ وفي كل مكان نجد شيئاً يشبهنا،

www.aleppogate.com

ولذلك نجد في كل مكان شيئاً يثير اهتمامنا بحيث نكون معه أو ضده. فأحياناً يجذبنا الجمال والحربة، والتنوع الغني؛ وأحياناً أخرى تجذبنا الطاقة أو النشاط الحي الذي يجعل من الرذيلة ذاتها موضع اهتمام. أحياناً نرى كتلة شاملة يؤلفها اهتمام مشترك تتقدم ببطء نسبي، وبالتالي تُترك ضحية تعدد لا متناهٍ من الظروف التافهة المعقدة، وعلى هذا النحو تتشتت وتذهب هباء. ثم نرى قدراً هائلاً من الطاقة يُبذل دون أن تنتج عنه إلاّ نتيجة تافهة، في حين أن أموراً بالغة الخطورة تنتج عن جهد يبدو ضئيل الأهمية. وهكذا نجد في كل مكان حشداً متنافراً من الأحداث يجذبنا إلى دائرة اهتمامه، وحين تختفي مجموعة من الأحداث تظهر في الحال مجموعة أخرى لتحل محلها.

إن الفكرة العامة، أو المقولة التي تتكشف لنا تدريجياً في هذا التغير الذي لا يهدأ للأفراد والشعوب التي تبقى لمدة معينة ثم تختفي ــ هي فكرة التغير بصفة عامة؛ فمنظر أطلال الممالك القديمة، يقودنا مباشرة إلى تأمل فكرة التغير هذه في جانبها السلبي؛ فهل يمكن أن يسير المسافر بين أطلال قرطاجة Carthage(٣٨) وبلميرا Palmyra(٣٩)، وبرسيبوليس Persepolis(٤٠)، وروما Roma

(٣٨) مدينة قديمة كانت تقع بالشاطئ الشمالي لأفريقيا إلى الشرق من مدينة تونس الحالية. أسسها الفينيقيون في القرن التاسع أو السابع قبل الميلاد، وأطلقوا عليها إسم بورصة أي القلعة. اشتغل أهلها بالزراعة والتجارة، وكانوا نداً قوياً لمرومة؛ واشتبكوا معاً في الحرب البونية التي انتهت بهزيمة قرطاجة وتدميرها عام ١٤٦ ق.م. وفي عهد الأمبراطور أغسطس بُنيت مدينة جديدة أصبحت أهم مدن أفريقيا، وبقيت حتى استولى عليها العرب عام ٦٩٨ م. توفي بها لويس التاسع ملك فرنسا في الحروب الصليبية [المترجم].

(٣٩) بلميرا أو تدمر مدينة قديمة وسط واحة في صحراء سوريا، كانت مُلتقى طرق القوافل بين سوريا والعراق. بنى فيها الملك سليمان مدينة أطلق عليها بالعبرية «تدمر» أي مدينة النخيل، ومنها اشتقت التسمية اليونانية بلميرا. بلغت أوج عظمتها أيام حكم الأباطرة الرومان. وفي القرن الثالث خضعت لأسرة سبتميوس، وكان أعظم رجالها سبتميوس أوذناثوس، الذي هزم الفرس، وجعل من تدمر دولة قوية، وبعد وفاته بسطت أرملته زنوبية رقعة الدولة بفتح مصر وأكثر آسيا الصغرى. وما زالت آثارها الباقية ــ وخاصة معبد الشمس ــ تدل على مدى ما كانت عليه من أهمية في العصر اليوناني [المترجم].

(٤٠) برسبوليس مدينة فارسية قديمة، كانت عاصمة للإمبراطورية الفارسية القديمة، وهي تقع شرق مدينة شيراز الحالية. أسسها الملك دارا الأول واتخذها عاصمة لملكه، وتمتعت بشهرة كبيرة في عصره وعصر خلفائه، ثم أحرق الأسكندر الأكبر القصر الملكي الذي كان مقر حكم الملك دارا في برسبوليس عام ٣٣١ ق.م. [المترجم].

www.aleppogate.com

دون أن تثار في ذهنه أفكار عن زوال الممالك والبشر، ويحزن حين تخطر بباله فكرة حياة كانت قوية غنية ولم يعد لها الآن وجود، وهو حزن لا ينصبُّ على خسائر شخصية ولا على غايات جزئية هشّة، وإنما هو حزن وأسف نزيه على انهيار حياة قومية متحضرة ورائعة! لكن الفكرة التالية التي ترتبط بفكرة التغير، هي أن التغير الذي هو انحلال، هو أيضاً مولد حياة جديدة، وأنه إذا كان الموت يخرج من الحياة فإن الحياة بدورها تخرج من الموت، وتلك فكرة جليلة وصل إليها المفكرون والشرقيون، وربما كانت أعلى نقطة بلغتها ميتافيزيقاهم ــ ونحن نجدها في فكرة تناسخ الأرواح Metem psychosis مرتبطة بالوجود الفردي. لكن هناك أسطورة معروفة أكثر من ذلك هي أسطورة العنقاء Phoenix[٤١] بوصفها نمط حياة الطبيعة: فهي تعد لنفسها بطريقة أبدية المحرقة أو كومة حطب لاحراق نفسها، وتهلك نفسها، لكنها تفعل ذلك لكي تخرج من رمادها حياة جديدة، نضرة ومنتعشة. لكن هذه الصورة آسيوية فحسب، وهي شرقية وليست غربية؛ فالروح، وهي تستهلك غلاف وجودها لا تنتقل فحسب إلى غلاف آخر، ولا تنهض وقد تجدّد شبابها من رماد صورتها القديمة، لكن في داخل عملية الدمار ذاتها هذه تغزل ذلك الوجود في صورة جديدة، وتصبح كل مرحلة سابقة بدورها مادة تغزل منها مرحلتها الجديدة، وترتفع بنفسها إلى مرتبة جديدة.

فإذا تأملنا الروح من هذه الزاوية، بحيث ننظر إلى تغيراتها، ليس فقط كانتقالات متجددة لشبابها، أعني عودة إلى نفس الصورة، بل بالأحرى عمليات تعديل لنفسها، تعمل بواسطتها على توسيع نطاق المادة التي ستستخدم في محاولات المستقبل، فإننا نراها تبذل جهدها في اتجاهات واحوال شتى، وتطور قواها وتشبع رغباتها في تنوع لا ينضب معينه؛ لأن كل واحدة من مخلوقاتها التي وجدت فيها بالفعل إشباعاً، تلتقي بها من جديد على أنها مادة، وتقوم بدور المثير (أو الحافز) الجديد لنشاطها التشكيلي. وعندئذٍ تحل محل التصور المجرد للتغير المحض، فكرة الروح التي تكشف عن قواها وتنميها وتزيدها كمالاً في كل

---

(٤١) كانت العنقاء من الطيور المقدّسة عند الفراعنة، فقد اعتقد قدماء المصريين انها تعمّر خمسة قرون أو ستة، ثم تحرق نفسها، وبعد ان تحرق نفسها تنبعث من رمادها من جديد، وهي أتم ما تكون شباباً وجمالا. لكن الروح التي تجدد شبابها والتي بعضها هيجل لا تعود على نحو ما كانت عليه من قبل، أعني لا تكرر نفسها، فتلك سنة الطبيعة وحدها، أما الروح فلا تكرار فيها، ولكنها من رمادها تظهر روح جديدة تضم ما سبق وتعلو عليه [المترجم].

www.aleppogate.com

اتجاه يمكن لطبيعتها المتعددة أن تسلكه. أمّا القوى التي تملكها داخليا، فإننا نعرفها عن طريق تنوع إنتاجها وتشكيلاتها التي تخلفها. في هذا النشاط الممتع لا تضطر الروح إلّا إلى أن تتعامل مع نفسها فحسب، صحيح أنها حين ترتبط بالشروط الطبيعية وحدها، داخلية وخارجية، ، ستصادف مقاومة وعوائق بل سوف ترى في الغالب مجهوداتها تبوء بالفشل، وكثيراً ما تغرق في تعقيدات توقعها فيها الطبيعة، أو توقع ذاتها فيها، لكنها تفنى في مثل هذه الحالة وهي تحقق مصيرها الخاص، وتمارس وظيفتها الخاصة، وبذلك فإنها تعرض علينا، وفي هذه الحالة بدورها، مشهد الكشف عن ذاتها بوصفها نشاطاً روحياً.

إن ماهية الروح ذاتها هي النشاط، فهي تحقق إمكاناتها، وتجعل من ذاتها صنيعة نفسها وعملها الخاص، وبذلك تصبح موضوعاً لذاتها، وتتأمل نفسها بوصفها وجوداً موضوعياً، وتلك هي الحال مع روح الشعب. إنها روح لها خصائصها المحددة بدقة، وهي تشيد نفسها في عالم موضوعي، وهي توجد الآن ويستمر وجودها (أي الروح) في صورة دينية معينة من صور العبادة، وفي عاداتها وعرفها، ودستورها، وقوانينها السياسية أي في المجموع الكلي لمنظماتها ومؤسساتها، في الأعمال والأحداث التي تصنع تاريخها. هذا هو عملها، وهذا هو ما تكونه تلك الأمة المعينة، فالأمم هي ما تكونه أعمالها. فكل مواطن إنجليزي يقول: نحن الذين نجوب أساطيلنا البحرية المحيطات، والذين نسيطر على تجارة العالم، وتنتمي إلينا جزر الهند الشرقية وثرواتها، ولنا برلمان، وهيئة محلفين.. الخ(٤٢). أمّا علاقة الفرد بتلك الروح فهي أن يستوعب في داخله هذا الوجود الجوهري، بحيث يجعل منه شخصيته، وقدراته، ويتيح له مكانا معلوما، بحيث يكون شيئاً ما، ذلك لأنه يجد أن وجود الشعب الذي ينتمي إليه هو عالم قائم بالفعل، عالم راسخ، حاضر أمامه بطريقة موضوعية، وعليه أن يندمج فيه. ولذلك فإن روح الشعب، في هذا العمل، أي عملها، نستمتع بوجودها ونجد إشباعها وتكون الأمة أخلاقية، وفاضلة، وقوية، عندما تنخرط في تحقيق أهدافها الكبرى، وتدافع عن عملها ضد العنف الخارجي خلال عملية إعطاء أغراضها وجوداً

---

(٤٢) كانت هذه الصورة، هي صورة إنجلترا في القرن التاسع عشر، أعني في عصر هيجل: حيث كانت انجلترا توصف بأنها الامبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس، وحيث جعلتها أساطيلها سيدة البحار، لكن هذه الصورة اهتزت وتغيرت معظم جوانبها في القرن العشرين وهبطت انجلترا إلى المرتبة الثانية بين دول العالم الكبرى [المترجم]

www.aleppogate.com

موضوعياً ــ عندئذ يزول التناقض بين وجودها الذاتي، أو وجودها بالقوة، أي حياتها وغايتها الداخلية، وبين وجودها بالفعل. فقد بلغت مرحلة الواقع التام، وأصبحت ذاتها حاضرة أمامها بالفعل بطريقة موضوعية ولكن ما أنْ تبلغ هذه المرحلة حتى يصبح النشاط الذي يمارسه روح الشعب الذي نتحدث عنه غير ضروري، ولا حاجة لها به، فالشعب لديه ما يريده؛ صحيح أنه يظل في استطاعة الأمة أن تنجز الشيء الكثير في وقت الحرب أو السلام، في الداخل والخارج، لكن النفس الجوهرية الحية نفسها يمكن أن يُقال عنها إنها توقفت عن النشاط، وبالتالي يختفي الاهتمام الجوهري الأعلى من حياتها، لأن الاهتمام لا يوجد إلا حيث توجد معارضة (أو مقاومة). وهكذا تعيش الأمة، عندئذ، نفس لون الحياة التي يحياها الفرد حين ينتقل من مرحلة النضج إلى مرحلة الشيخوخة، أي حين يستمتع بنفسه، وفي الرضا بأنه أصبح عين ما يرغب فيه، وما كان في استطاعته أن يصل إليه. وعلى الرغم من أن خيالها يمكن أن يجاوز هذا الحد، فإنها مع ذلك تقلع عن أي تطلع من هذا النوع يكون هدفا لمحاولة فعلية، إذا كان العالم الواقعي يضع أية عراقيل في سبيل تحقيق هذه المحاولة وينحصر هدفها في الأوضاع التي فرضت على هذا النحو. هذه الحياة المعتادة المألوفة (كالساعة التي تملأ ثم تترك لتعمل من نفسها) هي التي تجلب الموت الطبيعي، فالعادة هي نشاط بغير معارضة، لا يظل لها سوى دوام شكلي، ويمتنع فيها وجود الامتلاك والحماس اللذين كان يتسم بهما هدف الحياة في الأصل، فهي مجرد وجود حسي خارجي قد كفّ عن أن يندفع بحماس في سبيل هدفه أو موضوعه. وهكذا يفنى الأفراد وتتلاشى الشعوب بواسطة الموت الطبيعي، وعلى الرغم من أن الشعوب يمكن أن تستمر في الوجود، فإنه سيكون وجوداً بغير عقل ولا حيوية، وبغير حاجة إلى مؤسساتها، لأن الحاجة قد تم إشباعها، أعني أنها ستكون مجرد فراغ سياسي وملل سياسي. ولكي يظهر اهتمام كلي حقيقي فإن روح الشعب لا بدّ أن تتقدم فتتبنى غرضاً جديداً. لكن من أين يمكن أن ينشأ هذا الغرض الجديد...؟ لا بدّ أن يكون ذلك تصوراً لذاتها أعلى وأشمل، وتجاوزاً لمبدأها، غير أن هذا العمل نفسه لا بدّ أن يتضمن مبدأ من طراز جديد، أعني روحاً قومية جديدة.

مثل هذا المبدأ الجديد يتغلغل بالفعل في روح الشعب الذي وصل إلى تطور كامل، وتحقق ذاتي؛ وهو لا يموت موتاً طبيعياً ببساطة، لأنه ليس مجرد فرد منعزل، وإنما هو حياة روحية شاملة، بل إن الموت الطبيعي في حالتها يبدو

www.aleppogate.com

انتحاراً، وسبب اختلافها هذا عن الفرد الطبيعي الواحد، هو أن روح الشعب توجد بوصفها جنساً Genus، وهي بالتالي تحمل في جوفها سليلها الخاص، الذي يتمثل في نفس العمومية التي تتسم بها. إن الشعب لا يمكن أن يموت ميتة عنيفة إلاّ عندما يموت في ذاته ميتة طبيعية، كما هي الحال مثلا في المدن الامبراطورية الألمانية، وفي الدستور الامبراطوري الألماني.

على أنه ليس من طبيعة الروح التي تتغلغل في كل شيء أن تموت هذا الموت الطبيعي، فهي لا تنحدر ببساطة إلى حياة الشيخوخة: حياة العرف والعادة فحسب، لكنها، بوصفها روحا قومية تنتمي إلى التاريخ الكلي، تبلغ مرحلة الوعي بما تعمله، وتصل إلى مرحلة التفكير في ذاتها. والواقع أنها لا تكون منتمية إلى التاريخ العالمي إلاّ بمقدار ما يكون هناك مبدأ كلي يكمن في عنصرها الأساسي، وفي هدفها العظيم، وبهذا المقدار وحده يكون العمل الذي تنتجه هذه الروح تنظيما سياسيا وأخلاقيا. فلو كانت الرغبات وحدها هي التي تدفع الأمم إلى النشاط، لانقضت مثل الأعمال دون أن تترك أثراً، أو لكانت آثارها هي الخراب والدمار، فحسب. وعلى ذلك فإن كرونوس Chronos أو الزمان[٤٣]، هو أول مَنْ حكم، أعني العصر الذهبي بغير نوائح أخلاقية، كما أن كرونوس، قد التهم ما أنتجه، وهو ذريته. ولقد كان جوبيتر[٤٤] الذي بزغت مينرفا[٤٥] من

---

(٤٣) كرونوس Ieronos، أو Kronos، أو خرونوس Chronos ــ وهو نفسه الإله ساتورن Saturn عند الرومان ــ كان سيد الآلهة في الميثولوجيا اليونانية قبل الإله زيوس Zeus وهو ابن أورانس Oranus (السماء) وجي Ge (الأرض). طرد أباه أورانوس من عرش السماء، لكن القدر عاد يكرر نفسه فيطرده ابنه زيوس ويستولي على العرش، ويصبح كبيراً للآلهة وتستقر حياتهم فوق جبل الأولمب وينعمون بالعدالة. أمّا كرونوس فكان يلتهم جميع أبنائه بعد ذلك حتى استطاعت ربات الفنون أن تجعله يقلع عن هذه العادة. ولقد أطلق اليونانيون على كرونوس إسم إله الزمان، على اعتبار أن الزمان يلتهم كل لحظاته، ويصيب كل شيء بالخراب والدمار. أما الفنون فهي وحدها التي تستطيع أن تقف في طريقه [المترجم].

(٤٤) جوبيتر Jupiter عند الرومان، وهو نفسه الإله زيوس Zeus عند اليونان، وهو رب الأرباب، إله الأرض والسماء، كان يقطن فوق جبال الأولمب وهو ابن كرونوس من «ريا». أحب حوريات كثيرة أنجبن له بنين وبنات منهن أفروديت وآرتميس، كبير الآلهة بعد أبيه كرونوس مقيم العدل والاستقرار بين الآلهة [المترجم].

(٤٥) مينرفا Minerva عند الرومان، وهي أثينا عند اليونان، هي آلهة الحكمة، وقد خرجت من رأس جوبيتر أو زيوس كبير الآلهة تعبيراً عما تمثله من عقل ورجاحة فكر [المترجم].

www.aleppogate.com

رأسه، والذي ينطوي تحت لواء ألوهيته: الإله «أبولو»[٤٦]، وربات الفنون Muses[٤٧] هو أول مَنْ كبح جماح الزمن، ووضع حدا لجريانه ــ إن إله السياسة هو أول مَنْ وضع عملا أخلاقيا ألا وهو: الدولة.

وفي قلب عملية الانجاز ذاتها توجد خاصية العمومية والفكر، فبدون الفكر لا يكون هذا الانجاز موضوعية، ذلك لأن الفكر هو أساس الانجاز. وأعلى نقطة يصل إليها تطور الشعب هي هذه: أنه يكتسب فكرة واعية عن حياته ووضعه، وأن يضفي على قوانينه، وأفكاره عن العدالة والأخلاق صبغة العلم، لأنه في هذه الوحدة (وحدة الذاتية والموضوعية) تكمن أوثق وحدة تستطيع الروح بلوغها بذاتها. فهي في عملها، تسعى لكي تجعل من نفسها موضوعاً تأملها، لكنها لا تستطيع أن تطور نفسها بطريقة موضوعية إلى طبيعتها الجوهرية إلاّ بأن تفكر في ذاتها.

وإذنْ، فالروح، عند هذه النقطة، تتعرّف على مبادئها وعلى الطابع العام لأفعالها. لكن عمل الفكر هذا، هو في نفس الوقت وبسبب عموميته ذاتها، يختلف من حيث الشكل عن المنجزات الفعلية لعبقرية الأمة، وعن الفاعلية الحية التي تتحقق بها هذه المنجزات. إننا نجد أمامنا إذنْ، وجودا واقعيا، ومثاليا، لروح الأمة. فلو أننا أردنا أن نكتسب فكرة عامة وتصورا عاماً لما كان عليه

---

(٤٦) الإله أبولو Apollo أحد كبار الآلهة عند اليونان وهو الاله الثاني بعد زيوس من حيث القوة وانتشار العبادة. إبن زيوس من ليتو Leto، وشقيق الإلهة أرتميس Artmis وهو يُعبد على أنه إله العقاب، وإله النبوّ، وإله الشمس [المترجم].

(٤٧) ربات الفنون Muses في الأساطير اليونانية تسع بنات أنجبهن زيوس كبير الآلهة من تموزين (إلهة الذكرى). وهن كليو Clio ربة التاريخ، ويوترب Euterpe (الغناء) وتاليا Thalia ربة الكوميديا، وملبومين Melpomene ربة التراجيديا، وتربسخور Terpichore ربة الرقص، وإرتو Erato ربة الشعر الغنائي، وبوليهمنيا Polyhymni ربة الخطابة والبلاغة، وكاليوبي Calope ربة شعر الملاحم، وأورانيا Urania ربة الفلك، ومن إسم ربات الفنون Muses اشتق إسم المتاحف ودار الآثار Musée, Museum والموسيقى في اللغات الأجنبية.
ومن الواضح أن هيجل يلجأ هنا إلى الميثولوجيا اليونانية لتوضيح الفكرة التي يعبر عنها، والتي تتلخص في أن الأخلاق، والحكمة، ونواتجها ــ كالدولة ــ هي وحدها التي تعلو على الزمان، على الرغم من أنه يصيب بالدمار كل شيء آخر فلا يقف في وجهه ــ متحديا ــ سوى هذه المؤسسات الأخلاقية ونواتجها [المترجم].

www.aleppogate.com

الإغريق لوجدناه عند سوفكليس Sophocles[48] وأرستوفان Aristophance[49]، وثوكيديدز Thucydides، وأفلاطون Plato: ففي هؤلاء الأفراد تصورت الروح اليونانية ذاتها، وفكرت في ذاتها. وهذا هو نوع الارضاء العميق الذي تبلغه روح شعب ما، لكنه نشاط « مثالي » متميز عن نشاطها « الواقعي ».

في مثل ذلك العصر، نشاهد شعباً يجد، بالضرورة، ارضاء في فكرة الفضيلة، ويضع الكلام عن الفضيلة في بعض الأحيان على صعيد واحد مع الفضيلة الفعلية، ويجعله في أحيان أخرى يحل محلها. ومن ناحية أخرى فإن الفكر الكلي الخالص، ما دامت طبيعته هي الكلية، قادر على أن يدفع ما هو جزئي وتلقائي، أي الإيمان، والثقة أو الارتكان، وأخلاق العادة — إلى التفكير في نفسه، وفي بساطته البدائية وعلى أن يبين الحدود التي تقيده — إمّا بتقديم مبررات لنبذ الواجبات، وإمّا بأن يطالب هو ذاته بمبررات، ويبحث عن الصلة بين هذه المتطلبات وبين الفكر الكلي؛ وحين يجد هذه الصلة، يسعى إلى إدانة سلطة الواجب بصفة عامة، بوصفها غير قائمة على أساس سليم.

وتظهر في الوقت نفسه عزلة الأفراد بعضهم عن بعض، وعن الكل: غرورهم، وأنانيتهم العدوانية، وسعيهم وراء مصالحهم الشخصية، وذلك على

---

(٤٨) سوفكليس (٤٩٦ — ٤٠٦ ق.م) أعظم شعراء المأساة اليونانية، وأوسعهم شهرة، وأكثرهم أثراً في فكر هيجل، من أشهر مسرحياته « أوديب ملكاً » و « أوديب في كولونا » و « أنتيجونا » و « الكترا »، بان الجائزة الأولى من ١٨ إلى ٢٠ مرة. ولقد ظن هيجل يكن له أعظم تقدير طوال حياته؛ درسه في شبابه دراسة متعمقة لعدة سنوات بلا انقطاع (راجع ما سبق أن ذكرناه في المقدمة). وترجم بعض مسرحياته إلى اللغة الألمانية، لا زالت موجودة حتى الآن. كما أنه اهتم كثيراً بمسرحية أنتيجونا التي تصور في رأيه حال الروح الإغريقية وعمقها تصويراً كاملاً. وهو يشير إليها ويقتبس منها كثيراً في ظاهريات الروح — راجع ترجمة بيلي الانجليزية ص ٤٩١، وص ٤٩٣، وكذلك ٤٩٤ وأيضا ٤٩٦... الخ [المترجم].

(٤٩) أرستوفان (٤٤٨ — ٣٨٨ ق.م) أعظم شعراء الملهاة اليونانية، تتميز مسرحياته بهجومها العنيف ونقدها اللاذع للسياسة والأدباء المعاصرين، وبلغتها الجميلة، وما تتضمنه من مقطوعات غنائية رقيقة. أمّا شخصياته فطبيعية حية، استمدها من المجتمع الذي عاش فيه، فجاءت مطابقة للواقع. كتب إحدى عشرة مسرحية منها « الاكارنيون » و « الحب » حيث ينقد السفسطائيين وسقراط و « الضفادع » وهي دراسة أدبية مفصلة لمسرحيات أسخيلوس، و « يوريبيدس » و « الطيور » و « السحاب » و « السلام » [المترجم].

www.aleppogate.com

حساب الدولة بصفة عامة، أي أن هذا المبدأ الداخلي، وهو يجاوز تجلياته الخارجية، هو ذاتي أيضاً في الصورة أو الشكل، فهو أنانية وفساد للانفعالات الطليقة الجامحة وللمصالح الذاتية الأنانية بين الناس.

وعلى ذلك فإن زيوس Zeus الذي يوصف بأنه قد وضع حداً لفاعلية التهام الزمان، وأوقف هذا الإنسياب، بأن أقام شيئاً دائمًا في ذاته ـ أقول إن زيوس وأضرابه قد ابتلعتهم نفس القوة التي أنتجتهم ـ مبدأ الفكر، والادراك الحسي، والاستدلال العقلي، والبصيرة المستمدة من أسس عقلية، وما تتطلبه مثل هذه الأسس.

إن الزمان هو العنصر السالب Negative في العالم المحسوس، والفكر هو نفسه قوة السلب، لكنه أعمق صورها، أعني صورتها اللامتناهية التي ينحلُّ فيها كل وجود بصفة عامة. إذْ ينحل أولا الوجود المتناهي، أعني الصورة المحدودة المتعينة. لكن الوجود بصفة عامة، في طابعه الموضوعي، محدود؛ لذلك يظهر بوصفه معطى فحسب، أعني كشيء مباشر، وسلطة وهو إمّا متناهٍ ومحدود داخلياً أو يتمثل بوصفه حداً للذات المفكرة، وتفكيرها اللامتناهي في ذاتها (أعني التجريد اللامحدود).

لكن علينا أن نلاحظ أولاً كيف أن الحياة التي تخرج من الموت، ليست بدورها، من ناحية أخرى، إلاّ حياة فردية، بحيث أننا إذا ما نظرنا إلى النوع على أنه العنصر الحقيقي والجوهري وسط هذا التغير المتقلب، فإن فناء الفرد يعني ارتداد النوع إلى الفردية. ولذلك فإن بقاء النوع ليس إلاّ تكراراً مطرداً على وتيرة واحدة لنوع الوجود نفسه، وفضلا عن ذلك فإن علينا أن نلاحظ كيف أن الإدراك، أي الاحاطة الشاملة للفكر بالوجود ـ هو المصدر، والموطن الأصلي لكل جديد، وهو في الواقع شكل أعلى، لمبدأ يحتفظ بمادته في نفس الوقت الذي يحورها فيه. ذلك لأن الفكر هو ذلك الكلي، وهو ذلك النوع، الخالد الذي يحتفظ بهوية واحدة مع نفسه. والصورة الجزئية للروح، لا تنقضي في العالم بواسطة الاسباب الطبيعية في الزمان فحسب، بل إنها تمحي في نشاط الوعي الذي ينعكس على نفسه تلقائياً، ولما كان هذا الالغاء هو نشاط الفكر، فإن الفكر يحتفظ ويحوّر في الآن نفسه. وعلى ذلك فبينما تعمل الروح من ناحية على إلغاء الواقع، وتحطم دوام ما تكونه، فإنها تظفر في الوقت ذاته بالماهية وبالفكر، وبالعنصر الكلي لذلك الذي كانت عليه فحسب (أعني أحوالها العابرة). ولا يعود

www.aleppogate.com

مبدأها هو المضمون والغاية المباشرة اللذان كانا فيما سبق، بل يصبح ماهية ذلك المضمون وتلك الغاية.

ونتيجة هذا المسار، إذنْ، هي أن الروح، وهي تجعل نفسها موضوعية، وتجعل وجودها هذا موضوعا للتفكير، تدمر من ناحية أخرى الصورة الجزئية المعينة لوجودها، وتظفر من ناحية أخرى بفهم شامل للعنصر الكلي الذي يتضمنه هذا الوجود، وتضفي بذلك شكلا جديداً على مبدأها الباطني. وبسبب ذلك فإن الشخصية الجوهرية للروح القومية قد تغيّرت، أعني أن مبدأها قد ظهر في مبدأ آخر، وهو في الواقع يظهر في مبدأ أعلى.

وإنه لمن الأهمية القصوى، في إدراك التاريخ، وفهمه فهماً شاملا، أن تكون لدينا، الفكرة التي ينطوي عليها هذا الانتقال، وأن نفهمها. فالفرد بوصفه وحدة يمرّ بدرجات مختلفة من التطور، ويظل هو نفسه الفرد، ويسير الشعب بطريقة مماثلة حتى تصل الروح التي تتجسّد فيه إلى درجة الكلية. وفي هذه النقطة تكمن الضرورة الأساسية والفكرية (أو العقلية) للانتقال؛ هذه هي روح الفهم الفلسفي الشامل للتاريخ، وهي العنصر الجوهري فيه.

إن الروح هي في الأساس نتيجة لنشاطها الخاص: ونشاطها هو تجاوز الوجود المباشر البسيط غير المنعكس على ذاته، وهو سلب لذلك الوجود وعودة إلى ذاتها. ويمكن أن نشبه نشاطها بالبذرة، فمن البذرة يبدأ النبات، ومع ذلك فإن البذرة هي أيضاً حصيلة حياة النبات بأسرها، لكن الجانب الضعيف من الحياة يتجلىّ في انفصال البدايةوالنهاية كل عن الأخرى. وتلك هي الحال أيضاً في حياة الشعوب وحياة الأفراد: فحياة شعب ما تثمر ثمرة معينة، ويهدف نشاطه إلى ابراز المبدأ الذي تنطوي عليه إبرازاً كاملا غير أن هذه الثمرة لا تسقط مرة أخرى في حجر الشعب الذي أنتجها وأنضجها، بل تصبح، على العكس من ذلك، جريمة مسمومة ضده. على أن الشعب لا يمكن أن يترك هذه الجريمة المسمومة وشأنها، لأنه يشعر نحوها بظمأ لا يرتوي؛ غير أن تذوق الجرعة يعني دماره، على الرغم من أنه يعني في الوقت نفسه ظهور مبدأ جديد.

لقد سبق أن ناقشنا الغاية لهذا التقدم، فمبادىء المراحل المتتالية للروح التي تبعث الحياة في الأمم خلال تدرج ضروري، ليست هي نفسها إلاّ خطوات فحسب في تطور روح كلي واحد يرتفع من خلالها ويكمل نفسه ليصل إلى مرحلة الشمول الكلي Totality الذي يحوي ذاته.

www.aleppogate.com

وعلى حين أننا قصرنا اهتمامنا على فكرة الروح، ونظرنا إلى كل ما يحدث في تاريخ العالم على اعتبار أنه تجلٍ لها فحسب ـ فإن علينا ونحن نجتاز الماضي بالغا ما بلغ اتساع نطاقه ـ أن نتناول دراسة ما هو حاضر فحسب. ذلك لأن الفلسفة لما كانت تشغل نفسها بالحق، فإنها تبحث فيما هو حاضر بطريقة أبدية، فلا شيء من الماضي قد ضاع عندها، لأن الفكرة في حاضر دائم، فالروح خالدة. ولا يوجد عندها ماضٍ أو مستقبل. وإنما هي في جوهرها حاضر آني. ويستلزم ذلك بالضرورة أن يشمل الشكل الحاضر للروح في جوفه جميع الخطوات السابقة. صحيح أن هذه الخطوات قد تتكشّف في تعاقب مستقل، لكن جوهر الروح كان موجوداً دائمًا في ذاته؛ أمّا التميزات والتنوعات فلم تكن سوى تطورات الطبيعة الجوهرية؛ وحياة الروح الحاضرة دائمًا هي حلقة من التجسيدات المتعاقبة التي لا تظل قائمة بعضها إلى جانب بعض، إذا ما نظرنا إليها من زاوية معينة، ولا تظهر على أنها ماضٍ إلّا إذا ما نظرنا إليها من زاوية أخرى. أمّا تلك المراحل التي يبدو أن الروح خلّفتها وراءها فإنها تظل تمتلكها في أعماق حاضرها.

www.aleppogate.com

الأساس الجغرافي لتاريخ العالم

إن العلاقة مع الطبيعة، التي تساعد على إنتاج روح شعب ما، إذا ما قارنا بينها وبين شمول الكل الأخلاقي، وبين وحدة تلك الفردية التي هي مبدأها الفعال تبدو عنصرا خارجيا. لكن بمقدار ما ينبغي أن ننظر إليها على أنها الأرض التي تتحرك عليها الروح وتؤدّي دورها، فإنها تكون أساساً جوهريا وضروريا. ولقد بدأنا بالقول: إنه في تاريخ العالم تظهر فكرة الروح في تجسّدها الفعلي على أنها سلسلة من الصور الخارجية، تتكشف كل منها بوصفها شعباً موجوداً بالفعل. هذا الوجود يندرج تحت مقولة الزمان، كما يندرج تحت مقولة المكان، على طريقة وجود الأشياء الطبيعية، والمبدأ الخاص الذي يجسّده كل شعب من شعوب التاريخ يكون بمثابة خاصة طبيعية له. وحين تتخذ الروح هذه الصورة من صور الطبيعة تدفع أوجهها الجزئية إلى اتخاذ طابع الوجود المنفصل، لأن الاستبعاد المتبادل هو نوع الوجود المميز للطبيعة الخالصة. وهذه الفروق الطبيعية يلزم أن نعدها في بادىء الأمر إمكانيات خاصة، تتولّد منها روح الشعب. ومن هذه الإمكانيات: الأساس الجغرافي. وليس يعنينا أن نعرف الأرض التي تمثلها أمة من الأمم باعتبارها موقعاً محليا خارجيا، وإنما مجال اهتمامنا هو معرفة النمط الطبيعي للموقع المحلي من حيث صلته الوثيقة بنمط الشعب وشخصيته التي هي ثمرة لمثل هذه التربة. هذه الشخصية ليست أكثر ولا أقل من الحالة والصورة التي تظهر بها الأمم في التاريخ، وتأخذ مكانها ومركزها فيها. ولا ينبغي أن نغالي في تأكيد شأن الطبيعة، ولا أن نهوّن من شأنها: فمن المؤكد أن جو « أيونيا Ionia » المعتدل قد أسهم في إضفاء الصفاء والرقة على أشعار هوميروس ولكن هذا الجو وحده لا

www.aleppogate.com

يخلق لنا شعراء من طراز هوميروس، كما أنه لا يظل يأتي بمثلهم، ففي العهد التركي لم يظهر شعراء. وعلينا هنا أن نأخذ في اعتبارنا أولا تلك الظروف الطبيعية التي ينبغي أن تُستعاد مرة واحدة وإلى الأبد من دراما تاريخ العالم، ففي المنطقة المتجمدة والمنطقة الحارة لا يوجد الموقع المحلي المناسب لظهور شعوب التاريخ العالمي. ذلك لأن الوعي المستيقظ يظهر محفوفا بالمؤثرات الطبيعية وحدها، وكل تقدم له انعكاس الروح على نفسها في مقابل الطبيعة المباشرة، وعلى ذلك فإن الطبيعة عامل واحد في عملية التضاد التجريدية هذه والطبيعة هي وجهة النظر الأولى التي يستطيع منها الإنسان أن يظفر بحريته داخل ذاته، وينبغي ألّا تقف العقبات الطبيعية حائلا في وجه هذا التحرر. إن الطبيعة، في مقابل الروح، هي كتلة كمية، ويلزم ألّا يكون لها من القوة ما يجعلها قادرة على كل شيء، ففي المناطق المتطرفة لا يستطيع الإنسان أن يكون حرا في حركته، فالبرد والحر في تلك المناطق من القوة بحيث لا يسمحان للروح أن تقيم عالما لذاتها، وقديماً قال أرسطو: «حينما تُشبع الحاجات الملحة، ينتقل الإنسان الى طلب الأمور الرفيعة ذات الطابع العام». لكن هذا الالحاح والضغط الشديد في المناطق المتطرفة لا تخف وطأته، ولا يمكن تجنبه، ويضطر الإنسان أن يوجه اهتماما مباشراً مستمراً إلى الطبيعة، إلى أشعة الشمس المتقدة، أو إلى الجليد المتجمد. وعلى ذلك فإن مسرح التاريخ الحقيقي هو المنطقة المعتدلة أو بالأحرى النصف الشمالي منها، لأن الأرض فيه تمثل شكلا قاريا، وذا صدر واسع كما يقول اليونانيون. أمّا في الجنوب فهي تنقسم إلى عدة أقسام وتتشعب إلى نقاط شتى. وتظهر هذه الخاصية نفسها في نواتج الطبيعة، ففي الشمال أنواع كثيرة من الحيوانات والنباتات لها خصائص عامة مشتركة، أمّا في الجنوب حيث الأرض منقسمة إلى أقسام كثيرة فإن الأشكال الطبيعية بدورها تمثل ملامح فردية يباين بعضها بعضا.

وينقسم العالم إلى: عالم قديم، وعالم جديد. ولقد جاءت تسمية «الجديد» من أننا لم نعرف شيئاً عن أمريكا واستراليا إلّا حديثا. لكن هذه الاجزاء من العالم ليست جديدة نسبياً فحسب، ولكنها جديدة أيضا حتى من الناحية الداخلية، أعني من زاوية تكوينها الفيزيقي والسيكولوجي، ولا دخل لنا بالطبع بقدمها الجيولوجي. فانا لا أنكر على العالم الجديد شرف الانبثاق من البحر أثناء تكوين العالم في نفس الوقت الذي انبثق فيه العالم القديم. ومع ذلك فإن الأرخبيل أو مجموعة الجزر الموجودة بين أمريكا الجنوبية وآسيا، تظهرنا على عدم نضج فيزيقي. فالجزء الأكبر من الجزر قد تكون على نحو تكون فيه أشبه

www.aleppogate.com

برواسب سطحية من التراب على صخور، ظهرت من أعماق لا قرار لها، وتحمل طابع التكوين الجديد. وتظهرنا هولندا الجديدة على طابع جغرافي لا يقلّ عن ذلك في عدم نضجه، ذلك لأن المرء إذا ما توغل داخل هذا البلد متجاوزاً المستعمرات الإنجليزية، لاكتشف مجاري أنهار ضخمة لم تطور نفسها بعد إلى تلك الدرجة التي تمكنها من حفر قناة لنفسها، وإنما تتبدد في مستنقعات. ونحن نعرف معلومات عن أمريكا ودرجة حضارتها، خصوصاً في المكسيك، وبيرو، ولكنها لا تتضمن شيئاً أكثر من أن هذه الثقافة كانت وطنية تماماً تنقضي بمجرد ما تقترب الروح منها. ولقد ظهرت أمريكا نفسها باستمرار على أنها ضعيفة فيزيقياً وسيكولوجيا، ولا تزال تبدو كذلك لأن السكان الأصليين بعد أن هبط الأوروبيون أرض أمريكا تلاشوا بالتدريج مع بداية ظهور النشاط الأوروبي. ففي الولايات المتحدة في أمريكا الشمالية، ينحدر جميع المواطنين، من أصل أوروبي، ولم يستطع السكان القدامى أن يندمجوا معهم، وإنما دُفعوا إلى الداخل. صحيح أن السكان الأصليين قد اقتبسوا بعض الفنون والعادات عن الأوروبيين، مثل عادة شرب « البراندي » التي كانت لها آثار مدمّرة، وفي الجنوب يُعامل أبناء البلد الأصليون معاملة أشد عنفا بكثير، ويُستخدمون في الأعمال الشاقة التي لا تتناسب على الأطلاق مع قوتهم. وأهم سمات سكان أمريكا الأصليين هي: الوداعة، والمزاج الذي يخلو من انفعال، ونقص الحيوية والنشاط، والإذعان والطاعة للرجل الأبيض المولد، والمزيد من هذه الطاعة نحو الرجل الأوروبي. وسوف ينقضي وقت طويل قبل أن ينجح الأوروبيون في أن يبثوا فيهم روح الاستقلال. والواقع أن تخلف هؤلاء الأفراد في جميع النواحي، حتى في أحجامهم، واضح للعيان. ولا نجد بينهم طبائع أكثر صلابة إلاّ بين الأجناس التي تقطن في أقصى الجنوب في « باتاجونيا Ptagonia »، وإنْ كانوا لا يزالوا يتمسكون بحالتهم الطبيعية: حالة الخشونة والهمجية. وحين أراد اليسوعيون Jsuits، ورجال الدين الكاثوليك أن يُعوِّدوا الهنود على الثقافة، والعادات الأوروبية (وهم، كما هو معروف، قد أقاموا دولة في براجواي Praguay، كما أقاموا أديرة في المكسيك، وكاليفورنيا) بدأوا يتصلون بهم اتصالا وثيقاً وفرضوا عليهم واجبات اليوم. وقد قبلوها رغم كسلهم، وأذعنوا لها متأثرين بسلطة الرهبان. وكانت هذه الواجبات (التي وصلت إلى حد دق جرس في منتصف الليل لينبههم إلى واجباتهم الزوجية) التي وضعوها لهم موجهة في البداية إلى خلق حاجات، والحاجات هي الحوافز التي ينبثق منها السلوك البشري عموماً. ولقد كان ضعف الأمريكيين

www.aleppogate.com

الأصليين البدئي سبباً رئيسياً في جلب الزنوج إلى أمريكا واستخدامهم في الأعمال التي ينبغي أن تتم في العالم الجديد. ذلك لأن الزنوج كانوا أكثر تقبلا للمدنية الأوروبية من الهنود. ولقد اهتدى رحّالة انجليزي إلى أمثلة لزنوج أصبحوا قساوسة أكفاء، وأطباء.... إلخ (فقد كان أول مَنْ اكتشف أعشاب الكينا[٥٠] رجلا زنجياً). في حين أنه لم يُعرَف سوى واحد فقط من السكان الأصليين كان لديه من النمو العقلي ما يمكنه من الدراسة، لكنه سرعان ما توفي بعد أن بدأ في هذه الدراسة بوقت قصير إثر إفراطه في شرب الخمر. ومما ضاعف من تأثير ضعف البنية البشرية في أمريكا، الافتقار إلى أدوات التقدم وأجهزته، أي نقص الخيل والحديد، وهي الوسائل الرئيسية التي قهرتهم.

ولما كانت الأمة الأصلية قد اختفت، أو هي على وشك الاختفاء، فإن السكان الفعليين هم الذين جاءوا من أوروبا في الأعم الأغلب، أي أن ما يحدث في أمريكا ليس إلاّ انبثاقاً من أوروبا. فأوروبا قد أرسلت فائض سكانها إلى أمريكا على نحو يكاد يماثل ما حدث في المدن الامبراطورية العتيقة[٥١] التي تسيطر عليها الطوائف الحرفية، وتسير فيها التجارة بطريقة نمطية رتيبة، حين هرب كثير من الناس إلى المدن الأخرى التي لم تكن تزدحم تحت مثل هذا النير، والتي لم تكن فيها المكوس باهظة إلى هذا الحد، وهكذا ظهرت التونا Attona إلى جانب مدينة « هامبرج »، كما ظهرت أفنباخ Offenbach إلى جانب مدينة « فرانكفورت ». وظهرت فورت Furth إلى جانب « نورمبرج »، وكاروج Carouge إلى جانب « جنيف ». والواقع أن العلاقة بين أمريكا الشمالية وأوروبا تشبه ذلك، فكثير من الانجليز استقروا هناك حيث لا أعباء ولا رسوم، ولقد نجح تجمع الأجهزة والمهارات الأوروبية في تحقيق بعض العائد من تربة واسعة لا تزال بكراً. والواقع أن الهجرة قدمت في هذا السبيل الكثير من المزايا، فقد تخلّص المهاجرون من كثير من المعوائق التي كانت تقف في وجه مصالحهم الخاصة في وطنهم الأصلي، على حين أنهم حملوا معهم مزايا استقلال الروح الأوروبية، والمهارة المكتسبة. ومن المؤكد أن أمريكا قد فتحت مجالا جديداً للعمل أمام

---

(٥٠) وتُسمى أحيانا اللحاء البيروفي (أو لحاء الكينا) peruvian bark نسبة إلى بيرو بأمريكا الجنوبية وهي أعشاب تُستخدم لعلاج الحميات [المترجم].

(٥١) يقصد الامبراطورية الألمانية القديمة [المترجم].

www.aleppogate.com

أولئك الذين كان لديهم استعداد للعمل بنشاط، لكنهم لم يجدوا في أوروبا فرصة مواتية لكي يمارسوا نشاطهم.

إن أمريكا، كما نعرف، تنقسم قسمين يرتبطان بواسطة برزخ، لكن هذا البرزخ لم يكن هو وسيلة إقامة العلاقات بينهما، وإنما تميز كل قسم من هذين القسمين تميزاً أساسياً عن الآخر. فأمريكا الشمالية تبدو، على طول شاطئها الشرقي سهلاً ساحليا عريضا تمتد خلفه سلسلة من الجبال، هي الجبال الزرق أو جبال الأبلاش Apalachiaans أو جبال الليجاني Alleghanies في الجزء الواقع شمالا، ونروي الأنهار التي تنبع من هذه الجبال أرض الساحل التي تعتبر منطقة ذات ميزات كبرى للولايات المتحدة التي ينتمي أصلها إلى هذه المنطقة. فخلف هذه السلسلة من الجبال يجري نهر سانت لورنس St. Lawrence (الذي يرتبط ببحيرات عظمى) من الجنوب إلى الشمال، وعلى هذا النهر تقع المستعمرات الشمالية لكندا. وتلتقي في الغرب بحوض نهر المسيسيبي الواسع، وحوض نهر ميسوري، ونهر أوهيو، اللذين هما رافدان له، ثم يصبُّ النهر في خليج المكسيك. وفي الجانب الغربي من هذه المنطقة نجد أيضاً سلسلة طويلة من الجبال تمتد عبر المكسيك وبرزخ بنما، باسم جبال الانديز أو جبال كورديلرا Cordillera مكوِّنة شريطاً يمتد على طول الشاطىء الغربي لأمريكا الجنوبية بأكملها، والساحل الذي يكون نتيجة لذلك أضيق، وميزاته أقل من الساحل الموجود في أمريكا الشمالية. وفيه توجد «بيرو» و «شيلي». أمّا في الساحل الشرقي فتجري أنهار عظيمة في اتجاه الشرق مثل نهر أورينوكو Orinoco ونهر الأمازون Amazons ويكونان وديانا هائلة، وإنْ لم تكن تصلح للزراعة لأنها ليست إلاّ سهوبا صحراوية واسعة. ويجري في اتجاه الجنوب نهر ريو دي لا بلاتا Rio de la Plata[٥٢] الذي تنبع بعض روافده من جبال الأنديز (أو كورديلرا) وبعضها الآخر من سلسلة الجبال الشمالية التي تفصل حوض الأمازون عن حوض نهر لابلاته. وتنتمي جمهورية البرازيل، والجمهوريات الاسبانية إلى إقليم ريودي لابلاته. وتحتل كولمبيا ساحل الشاطىء الشمالي لأمريكا الجنوبية، حيث يصبُّ إلى الغرب منها في البحر الكاريبي، نهر مجدلينا الذي يجري بطول الأنديز.

ولقد قامت في أمريكا الجنوبية جمهوريات كتلك التي قامت في أمريكا

---

(٥٢) يُكتب عادة نهر لا بلاته فقط [المترجم].

www.aleppogate.com

الشمالية سواء بسواء، باستثناء البرازيل. وإذا ما قارنا بين أمريكا الجنوبية (معتبرين المكسيك جزءاً منها) وبين أمريكا الشمالية لاحظنا تباينا مذهلا.

إذْ نشاهد في أمريكا الشمالية وضعاً مزدهراً، ونمواً في الصناعة، وازدياداً في السكان، وحرية راسخة، ونظاماً مدنيا، ولا يشكل الاتحاد كله سوى دولة واحدة ذات مراكز أساسية. أمّا في أمريكا الجنوبية، فاننا نجد على العكس، جمهوريات لا تعتمد إلّا على القوة العسكرية، وتاريخها كله مليء بالانقلابات المتصلة، التي تتفكك فيها دول كانت متحدة، وتتحد دول كانت منفصلة، وهذه التغيرات كلها تحدث بواسطة الانقلابات العسكرية.

إن الاختلافات الأكثر دقة بين جزأي أمريكا ناتجة عن اتجاهين متضادين أحدهما في المسائل السياسية والآخر خاص بالدين: فأمريكا الجنوبية، حيث استقر الأسبان واتعقد لهم لواء السيادة، كاثوليكية. أمّا أمريكا الشمالية فعلى الرغم من أنها أرض النخيل من كل لون، فإنها مع ذلك بروتستانتية أساساً. وهناك فارق أكبر من ذلك يتمثّل في أن أمريكا الجنوبية فُتحت وقُهرت، في حين أن أمريكا الشمالية استُعمرت[٥٣]. فقد استولى الأسبان على أمريكا الجنوبية ليحكموها، ولكي يثروا من خلال المناصب السياسية عن طريق ألوان الاغتصاب والابتزاز، ولّما كانوا يبتعدون عن الأرض الأم التي تبتعد عنهم بمسافات شاسعة، فقد وجدت رغباتهم مجالا أوسع، وبالقوة، والبراعة، والثقة في أنفسهم، ظفروا بتفوق هائل على الهنود. أمّا ولايات أمريكا الشمالية فقد استعمرها كلها الأوروبيون. ولّما كان الطُهرانيون، والاسقفيون، والكاثوليك في انجلترا، قد اشتبكوا في صراع دائم يتغلّب فيه هذا الفريق تارة وذاك تارة أخرى، فقد هاجر كثير منهم التماساً للحرية الدينية في بلد أجنبي. ولقد كان هؤلاء المهاجرون أوروبيين نشطين كرّسوا حياتهم للزراعة: زراعة التبغ، والقطن... الخ.

وسرعان ما وجه السكان اهتمامهم كله إلى العمل، وأصبح أساس وجودهم، كجسم متحد هو الضرورات التي تربط بين إنسان وإنسان، والرغبة في السكينة،

---

(٥٣) لاحظ أن لفظ «الاستعمار» يُستخدم هنا لا بالمعنى السيء الحالي، بل بالمعنى الأصلي، أي تزوح جماعة من الناس إلى منطقة شبه خالية من أجل «تعميرها». أمّا «الاستعمار» كما نعرفه اليوم فيقترب كثيراً من وصف هيجل «للاحتلال» الأسباني لأمريكا الجنوبية [المترجم].

www.aleppogate.com

وإقامة الحقوق المدنية، وكفالة الأمن والحرية، وإقامة مجتمع ينشأ من تجمع الأفراد بوصفهم عناصر أساسية مكونة بحيث كانت الدولة مجرد شيء خارجي لحماية الملكية الخاصة. ومن الديانة البروتستانتية انبثق مبدأ الثقة المتبادلة بين الأفراد[٥٤] أعني الثقة في شرف خصال الآخرين، ذلك لأن الكنيسة البروتستانتية ترى أن الحياة كلها، أي نشاطها بصفة عامة، هي مجال العمل الديني. أمّا عند الكاثوليك فلا يمكن أن يكون هناك مثل هذا الأساس للثقة المتبادلة، لأن العنف والخضوع الإختياري هما وحدهما مبادىء السلطة في المسائل الدنيوية. أمّا الأشكال التي نسميها باسم الدساتير فهي في هذه الحالة تصبح مسألة لجوء إلى الضرورة، ولا تشكل أساسا لحماية المواطنين من عدم الثقة.

لو أننا عقدنا مقارنة أخرى بين أمريكا الشمالية وأوروبا، فسوف نجد في الأول المثل الدائم للدستور الجمهوري. فها هنا تبرز أمامنا وحدة ذاتية، حيث نجد رئيس الجمهورية على رأس الدولة، وقد اختير رئيساً لمدة أربع سنوات فحسب حتى يكون ذلك ضمانا يحدّ من طموحه نحو النظام الملكي. وهم يثنون ثناء مستمراً على ما لديهم من حماية عامة للملكية الخاصة، وإعفاء تاماً، تقريباً، من عبء الضرائب العامة. هذه الوقائع تكشف عن الشخصية الأساسية للمجتمع: وهي سعي الفرد وراء المكاسب، والمنافع، والأرباح التجارية، وسيادة المصلحة الشخصية الخاصة، التي لا تهتم بالجماعة إلاّ من أجل منفعتها الخاصة فحسب. صحيح أننا نجد علاقات قانونية، وقانوناً رسمياً، لكن احترام القانون شيء، والأمانة الحقيقية شيء آخر، فالتجار الأمريكيون يتمتعون بسمعة سيئة في الخداع والنصب في ظل حماية القانون. وإذا كانت الكنيسة البروتستانتية ــ من ناحية ــ تنمي المبدأ الأساسي للثقة، كما قلنا، فإنها بذلك تتضمن، من ناحية أخرى، الاعتراف بصحة عامل الشعور لدرجة أنها تسمح له بأن يتحول إلى نزوات متنوعة؛ وأولئك الذين يؤمنون بهذه النظرة يؤكدون أن المرء، كما أنه يمكن أن تكون له طريقة خاصة في النظر إلى الأشياء بصفة عامة، فإنه يمكن أن تكون له كذلك ديانة خاصة. ومن هنا انقسموا إلى عدد كبير من الفرق يصل إلى أقصى درجات الحمق، وتتخذ العبادة في كثير منها شكل الحركات التشنجية، وفي

---

(٥٤) لاحظ أن هيجل كان بروتستانتياً، وقد تخرج من معهد توبنجن الديني ليكون راعياً رسولياً! [المترجم].

www.aleppogate.com

بعض الأحيان أقصى ألوان التطرف الحسي. ولقد تطورت حرية العبادة الكاملة هذه إلى حد أن أصبحت لطوائف المختلفة تختار قساوستها وتستغني عنهم بحرية مطلقة؛ ذلك لأن الكنيسة ليس لها وجود مستقل ــ وليس لها وجود روحي جوهري يناظره تنظيم خارجي دائم ــ بل إن شؤون الدين تُنظَّم تبعاً للمشيئة المتغيرة لدى أفراد الجماعة. ففي أمريكا الشمالية يسود المسائل الدينية قدر عظيم من الفوضى، والخيال الجامح، وتفتقد الوحدة الدينية التي أمكن الحفاظ عليها في الدول الأوروبية حيث تنحصر الانحرافات في عدد قليل من المذاهب الدينية. أمّا بالنسبة للوضع السياسي في أمريكا الشمالية فإن الهدف العام من وجود هذه الدولة لم يتحدد على نحو ثابت؛ ولا توجد بعد حاجة إلى اتحاد متماسك؛ ذلك لأن الدولة الحقيقية، والحكومة الحقة لا يظهران إلّا بعد أن تظهر الطبقات المتميزة، وعندما يصل الغنى والفقر إلى حدهما الأقصى، وعندما يوجد وضع يتعذّر معه على الغالبية العظمى من الناس إشباع حاجاتهم الضرورية بالطريقة التي اعتادوها. لكن أمريكا ظلت حتى الآن لا يهددها هذا التوتر؛ ذلك لأن باب الاستعمار(٥٥) بوصفه مخرجاً لا يزال مفتوحا أمامها على مصراعيه، كما أن جماهير غفيرة تنزح بصفة دائمة إلى سهول المسيسبي. وبهذه الطريقة يختفي المنبع الأساسي للسخط والاستياء، وتضمن بقاء الوضع السياسي الراهن قائماً. لذلك فإن المقارنة بين الولايات المتحدة في أمريكا الشمالية وبين الدول الأوروبية مستحيلة، لأن هذا المخرج الطبيعي للسكان غير موجود في أوروبا، رغم كل ما يحدث من ألوان الهجرة، ولو أن غابات ألمانيا كانت موجودة في فرنسا، لما حدثت الثورة الفرنسية. ولن تصبح أمريكا الشمالية مشابهة لأوروبا إلّا بعد أن يشغل السكان ذلك الحيز الهائل الذي تمثله هذه البلاد، وبعد أن يبدأ أعضاء المجتمع السياسي في الضغط بعضهم على بعض. إذْ لا تزال أمريكا الشمالية في وضع الدولة التي لا تزال توجد فيها أرض جديدة تُستزرَع. ولن يندفع السكان نحو الداخل ويضغط بعضهم على بعض، ويسعون نحو الحرف التي توجد في المدينة، ونحو التجارة مع غيرهم من المواطنين ــ بدلا من أن يتدفقوا نحو الخارج ليشغلوا الحقول ــ إلّا عندما تتوقف الزيادة المباشرة للمزارعين كما حدث في أوروبا،

---

(٥٥) لاحظ المعنى الذي سبق أن ذكرناه لكلمة الاستعمار، وهو نزوح مجموعة من الناس لتعمير منطقة شبه خالية، وبالتالي فهو يبعد عن المعنى السيء الذي نفهمه اليوم من هذه الكلمة [المترجم].

www.aleppogate.com

وعندئذ سيشكلون نظاماً محكماً من المجتمع المدني، وسيشعرون بالحاجة إلى الدولة المنظمة. والاتحاد الفيدرالي في أمريكا الشمالية ليس له دولة مجاورة تربطه بها علاقة تماثل علاقة الدول الأوروبية بعضها مع بعض ــ أعني دولة يُنظر إليها بريب وعدم ثقة، ويتعين عليه أن يعد ضدها جيشاً على أهبة الاستعداد؛ فكندا، والمكسيك ليستا بلاداً تثير الخوف، أمّا انجلترا فتعرف، من خلال خبرة خمسين عاما، أن أمريكا وهي حرة أنفع لها مما كانت عليه حين كانت خاضعة. ولقد أبدت قوات الميليشيا في جمهورية أمريكا الشمالية شجاعة في حرب الاستقلال تماثل شجاعة الهولنديين إبّان حكم الملك فيليب الثاني[٥٦]. لكننا نجد أن هذه القوات تكشف عن قدر أقل من القوة عندما لا يكون هناك خطر يتهدد الاستقلال. وفي عام ١٨١٤ صمدت قوات الميليشيا في الصراع ضد الانجليز ولكن بطريقة سيئة.

أمريكا، إذنْ، هي أرض المستقبل، فها هنا سوف يتكشّف في العصور القادمة عنصر هام من عناصر تاريخ العالم؛ وربما كان ذلك على شكل نزاع بين أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية؛ إنها بلاد الأحلام لكل أولئك الذين ملّوا وضجروا من مخزن الأسلحة التاريخي في أوروبا القديمة. ويُروَى عن نابليون أنه قال: «أوروبا القديمة هذه تشعرني بالسأم». . . وعلى أمريكا أن تنفصل عن الأرض التي تطور عليها تاريخ العالم الآن. على أن ما حدث حتى الآن في العالم الجديد ليس إلاّ صدى للعالم القديم. أعني التعبير عن حياة أجنبية، كما أنها بوصفها أرض المستقبل، لا تهمنا هنا، لأن اهتمامنا لا بدّ أن ينصب ــ بالنسبة للتاريخ ــ على ما حدث في الماضي وما يحدث في الحاضر[٥٧]. أمّا بالنسبة

---

(٥٦) أحد ملوك أسبانيا (١٥٢٧ ــ ١٥٩٨) تولىّ عرش أسبانيا ونابولي وصقلية عقب تنازل أبيه الملك شارل الخامس عن العرش عام ١٥٥٦. تزوج ماري ملكة انجلترا الكاثوليكية فكرهه الانجليز، واصل حرب أبيه ضد فرنسا وجعل أسبانيا أقوى دولة بأوروبا، وعُرف باستبداده وتعصبه، وزاد نفوذ محاكم التفتيش في عصره، وأدّت قسوته إلى ضياع هولندا من قبضته، حيث أيّد الهولنديون بلاءاً حسناً في حربهم ضده، وساعدتهم انجلترا على التخلّص من حكمه، وقد حاول لهذا السبب غزو انجلترا انتقاماً لمساعدتها الهولنديين [المترجم].

(٥٧) نجد هنا تقريراً لمبدأ من أهم المبادىء التي تحكم الدراسات التاريخية، فالتاريخ ينتهي في الحاضر لا في المستقبل، وليس من طبيعة المؤرخ أن يتنبأ بالأحداث المقبلة. ولقد تعرّض هذا المبدأ الهام لسوء فهم غريب، فقيل إن هيجل يمجّد الدولة البروسية التي ينتهي عندها =

www.aleppogate.com

للفلسفة فإن ما يشغلها ليس هو الماضي ولا المستقبل (إنْ شئنا الدقة) وإنما هو الحاضر: أعني ما هو موجود، وما له وجود أيدي: وهو العقل، وهذا كاف جدا ليشغل اهتمامنا.

فإذا ما استبعدنا العالم الجديد، وما قد يثيره من أحلام، وانتقلنا إلى العالم القديم ــ أعني إلى مسرح تاريخ العالم، كان لا بدّ أن نتناول أولا العناصر الطبيعية وما تمثله من ظروف، فأمريكا مقسمة إلى قسمين يرتبطان ببرزخ، لكن هذا البرزخ لا يشكل سوى رابطة مادية وخارجية. أمّا العالم الذي يقابل أمريكا ويفصله المحيط الأطلنطي عنها، فإن اتصاله ينقطع بواسطة خليج داخلي عميق هو البحر الأبيض المتوسط. وترتبط القارات الثلاث التي يتألف منها هذا العالم، فيما بينها، بعلاقة جوهرية ــ ويشكل شمولها كليا واحداً Totality. والسمة المميزة لهذه القارات هي أنها تقع حول هذا البحر، وبالتالي فلديها وسيلة سهلة للاتصال. ذلك لأن الأنهار والبحار ينبغي ألاّ يُنظر إليها على أنها أداة فصل وتفرقة، وإنما أداة ربط وتوحيد. ولقد اتحدت انجلترا[٥٨]، وبريتاني[٥٩]، والنرويج، والدانمارك، والسويد، وليفونيا Livonia[٦٠]، وبالمثل فإن البحر الأبيض المتوسط كان عنصر ربط دائم، ومركزاً لتاريخ العالم، بالنسبة إلى ثلاثة

التاريخ في نظره، مع أن المفروض أن هيجل توقف عند الدولة البروسية لأنها «الحاضر» الذي تصادف أن عاش فيه الفيلسوف الألماني ببساطة شديدة، وهذا الحاضر هو القمة التي يبلغها تطور التاريخ البشري، لكنه ليس نهايته [المترجم].

(٥٨) أكبر الأقسام السياسية بجزيرة بريطانيا العظمى في مجموعة الجزر البريطانية بعدها ويلز غربا واسكتلندا شرقا، ويفصلها عن القارة الأوروبية القنال الانجليزي، ومضيق دوفر، وبحر الشمال، والمراد أنها اتحدت مع غيرها من المقاطعات والأقاليم الأوروبية برغم هذه الفواصل المائية [المترجم].

(٥٩) إقليم ومقاطعة سابقة، شمال غرب فرنسا، وشبه جزيرة، بين القنال الانجليزي وخليج بسكاي، تشمل عدة محافظات حالية. شواطئها صخرية غير منتظمة، وداخلها تلال، استمدّت اسمها من هجرة البريتون ولا تزال اللغة البريتونية لغة الكلام في بريتاني السفلى، وتاريخ الأقاليم كفاح طويل للاستقلال ثم ضُمّت إلى فرنسا رسميا عام ١٥٣٢ [المترجم].

(٦٠) ليفونيا، إحدى مقاطعات بحر البلطيق الثلاث انضمت إلى السويد في عام ١٦٢٦، لكن بطرس الأكبر انتزعها من السويد في بداية القرن الثامن عشر وضمها إلى روسيا، قسمت في نهاية الحرب العالمية بين جمهوريتي لاتفيا Latvia واستونيا Esthonia، احتلتها ألمانيا في الحرب الأخيرة، لكن الاتحاد السوفيتي استولى عليها مرة أخرى [المترجم].

www.aleppogate.com

أرباع الكرة الأرضية. فها هنا تقع اليونان: منارة التاريخ، وهنا أيضاً القدس في سوريا[٦١]، وهي مركز اليهودية والمسيحية. وفي الجنوب الشرقي منه تقع مكة والمدينة مهد الديانة الإسلامية. ونحو الغرب تقع دلفي، وأثينا، وإذا سرنا أبعد، في طريق الغرب، وجدنا روما. وعلى شاطىء البحر المتوسط نوجد أيضاً مدينة الاسكندرية، ومدينة قرطاجة، وعلى ذلك فإن البحر المتوسط هو قلب العالم القديم، فهو الذي يتحكم فيه ويشيع فيه الحياة. وبدونه ما كان يمكن تصور تاريخ للعالم، ولكان أشبه بروما أو أثينا في العصور القديمة بدون الساحة العامة Forum[٦٢] التي كانت تتجمع فيها حياة المدينة بأسرها. أمّا الأرض الآسيوية الواسعة الممتدة نحو الشرق فهي منفصلة عن مسار التطور التاريخي العام، ولا نصيب لها منه. وقلْ مثل ذلك عن أوروبا الشمالية التي لم تلعب دوراً في تاريخ العالم إلاّ في فترة متأخرة، ولم يكن لها دور فيه خلال الوقت الذي دامه تاريخ العالم القديم، لأن هذا الدور اقتصر على البلاد التي تقع حول البحر الأبيض المتوسط. ومن هنا فإن عبور يوليوس قيصر جبال الألب وفتح بلاد الغال Gaul[٦٣] والعلاقة التي انخرط فيها الجرمانيون[٦٤] نتيجة لذلك، مع الإمبراطورية الرومانية ــ تشكل عهداً فاصلاً، ونقطة تحول حاسمة في التاريخ، بفضل هذه العلاقة، بدأ يمد حدوده فيما وراء الألب. وعلى ذلك فإن آسيا الشرقية، والبلاد

---

(٦١) لعله يقصد الشام بصفة عامة، فمن المعروف أن القدس تقع في فلسطين لا في سوريا [المترجم].

(٦٢) كان الميدان، أو السوق، أو الساحة العامة، من المعالم الرئيسية في أثينا وروما قديماً حيث يلتقي المواطنون، وتدور بينهم مناقشات ومناظرات لعبت دوراً بارزاً في تشكيل الحياة السياسية والفكرية في هذه المدن قديماً [المترجم].

(٦٣) اسم قديم يُطلق على البلاد التي تحدها جبال الألب شرقاً، ونهر الراين شمالاً، والمحيط الأطلنطي غرباً، وجبال البرانس جنوباً، وهذا الإسم مستمد من الغزاة الكلت الذين استقروا هناك في القرنين الثالث والرابع قبل الميلاد، وأطلق الرومان عليها اسم الغال، واستولى عليها يوليوس قيصر في الحروب التي تُسمى باسم الحروب الغالية (٤٨ ــ ٥١ ق.م) وأصبحت اللاتينية لغة البلاد، واصطبغت البلاد بالحضارة الرومانية، وهذه المنطقة تشمل الآن: فرنسا، وبلجيكا، وسويسرا، وجزءاً من ألمانيا.

(٦٤) المقصود بالجرمانية مجموعة من الأجناس الأوروبية تغلب في شعوب السويد، والنرويج، والدانمارك، وايسلندا، وألمانيا، والنمسا وسويسرا، وهولندا، وبلجيكا. جاء وصفهم في أعمال قيصر، وقد انتشروا وأصبحوا مصدر متاعب للامبراطورية الرومانية قديما [المترجم].

www.aleppogate.com

التي تقع فيما وراء جبال الألب، تمثل الطرفين القصيين لتلك البؤرة المضطرمة للحياة البشرية التي تقع حول البحر الأبيض المتوسط ــ أعني بداية التاريخ ونهايته، وظهوره وإنهياره.

لا بدّ لنا الآن أن نحدد ــ بطريقة أكثر دقة ــ الفروق الجغرافية الخاصة؛ ولا بدّ من اعتبارها فروقاً جوهرية، وعقلية، في مقابل تنوع الظروف العَرَضية فحسب. وهناك في هذا الصدد ثلاثة فروق أساسية على وجه الخصوص:

١ ــ الأرض المرتفعة القاحلة بسهولها الواسعة.

٢ ــ السهول الوديانية ــ أرض الانتقال، التي تتخللها وترويها أنهار عظيمة.

٣ ــ المنطقة الساحلية التي ترتبط ارتباطاً مباشراً بالبحر.

هذه العناصر الجغرافية الثلاثة هي عناصر جوهرية، وسوف نرى أن كل جزء من العالم ينقسم بالتالي إلى ثلاثة أقسام: الأول هو المنطقة المرتفعة، الصلبة المعدنية، وهي مغلقة على نفسها بطريقة صلبة لا تلين، لكنها ربما كانت قادرة على إرسال نبضات منها إلى بقية انحاء العالم. والقسم الثاني يشكل مراكز للحضارة وهو يمثل الاستقلال الذي لم يتطور بعد (للبشرية). ويقدم لنا القسم الثالث وسائل ربط العالم بعضه مع بعض، ودعم هذا الربط.

١ ــ الأرض المرتفعة:

يمكن أن نجد أمثلة للبلاد التي ينطبق عليها هذا الوصف في وسط آسيا حيث كان يقطن المغول[٦٥] (مطلقين هذا اللفظ بمعنى عام)؛ وتمتد هذه السهوب من بحر قزوين في اتجاه الشمال حتى البحر الأسود، كما نجد أراضي مماثلة في منطقة الصحراء العربية، وصحراء البربر في أفريقيا[٦٦] وفي الصحاري الواقعة حول نهر أورينوكو وصحارى براجواي في أمريكا الجنوبية. والسمات التي تميز السكان في هذه

---

(٦٥) شعب آسيوي منتشر في منغوليا وشمال منشوريا وغربها، وهم رعاة رُحَّل، وكانت القبائل المغولية هي التي فتحت روسيا وتوغلت في أوروبا، وقد ضمّت عناصر كبيرة من الاتراك وغيرهم من الشعوب التي تُعرف باسم التتار عموماً [المترجم].

(٦٦) هي الصحراء الكبرى في افريقيا، وسميت باسم صحراء البربر نظراً لأن اسم البربر كان يطلق قديماً على بلاد المغرب والجزائر وتونس فأطلق الاسم على الصحراء التي تقع جنوبي هذه البلاد [المترجم].

www.aleppogate.com

المناطق المرتفعة ــ التي تروي أحيانا بالمطر فحسب، أو بفيضان الأنهر (كما هي الحال في سهول نهر أوريونوكو) ــ هي سمات الحياة الأبوية البطريركية، والانقسام إلى عائلات فردية. والمنطقة التي تعيش فيها هذه العائلات منطقة خصبة، أو لا تكون منتجة إلاّ موسمياً فقط. ولهذا فإن السكان لا يركزون ملكيتهم الخاصة في الأرض التي لا يجنون منها إلاّ ريعاً نافهاً ــ وإنما في الحيوانات التي تنتقل معهم من مكان إلى مكان، فهذه الحيوانات تجد ــ لفترة طويلة ــ مراعي في السهول، وعندما تنضب يتنقلون إلى مناطق أخرى. وهؤلاء الرعاة يتسمون بالإهمال، ولا يخزنون شيئاً لموسم الشتاء. ولهذا السبب فإن نصف القطيع وحده يضيع منهم. ولا توجد علاقات قانونية بين سكان هذه المناطق، وهذا ينتشر بينهم الطرفان القصيان: الكرم وحسن الضيافة من ناحية، والسلب والنهب من ناحية أخرى. وتكون الصفة الأخيرة أكثر وضوحاً حين يكونون محاطين بأمم متحضرة، كما هي الحال في الأعراب[٦٧] الذين تساعدهم خيولهم وجمالهم في عمليات السلب التي يقومون بها. ويتغذّى المغول على لبن الخيل، وهكذا يصبح الحصان عندهم وسيلة للغذاء والقتال في وقت واحد. وعلى الرغم من أن تلك هي صورة الحياة الأبوية البطريركية عندهم فكثيراً ما يحدث أن يلتحموا معاً ليكوّنوا كتلاً بشرية ضخمة، وعن طريق دافع من نوع أو آخر، يُستثارون نحو حركة خارجية. عندئذ يندفعون، على الرغم من أن مزاجهم من قبل كان مسالماً، كالسيل المدمر نحو البلاد المتحضرة، ولا تؤدي الثورة التي تشب إلاّ إلى الخراب والدمار. ولقد قام جنكيزخان، وتيمورلنك، بحركة من هذا القبيل بين تلك القبائل: فاكتسحوا كل شيء ودمروا كل ما وجدوه أمامهم، ثم اختفوا مرة أخرى، كالسيل الجارف الذي يأتي من الغابة، إنه لا يحتوي في داخله على أي مبدأ للحياة. وهكذا يهبطون من الأرض الجبلية إلى الوديان الضيقة حيث يسكن رعاة جبليون مسالمون وهم رعاة قد يشتغلون أيضا بالزراعة، كما يفعل السويسريون، ويوجد في آسيا كذلك أمثلة لهذا النوع الأخير من الرعاة الجبليين، ولكنهم عموما ليست لهم أهمية كبيرة.

---

(٦٧) ربما كان الحديث عن « الأعراب » ــ لا العرب ــ يبرز الصورة الدقيقة التي يريدها هيجل هنا، فهو ــ في اعتقادي ــ لا يقصد الحديث عن الأمة العربية بهذا الوصف الذي يصف به قبائل البدو الرحل [المترجم].

www.aleppogate.com

٢ ــ سهول الوديان:

وهي سهول تجري فيها الأنهار، وتدين بخصوبتها للأنهار التي كونتها؛ ومن أمثلة هذه السهول: الصين، والهند، التي يخترقها نهر السند ونهر الكنج؛ وبابل حيث يجري نهرا دجلة والفرات؛ ومصر التي يرويها النيل. في هذه المناطق المتسعة تنشأ ممالك مترامية الأطراف، ويبدأ تأسيس الدول العظيمة، لأن الزراعة التي تنتشر هنا بوصفها المصدر الأساسي للرزق، يساعدها انتظام الفصول، الذي يتطلب عمليات زراعية منتظمة أيضاً. وهكذا تبدأ الملكية الخاصة للأرض، وما يترتب عليها من علاقات تشريعية، أعني أسس الدولة التي لا تصبح ممكنة إلا عن طريق هذه العلاقات وحدها.

٣ ــ الارض الساحلية:

إذا كان النهر يفصل بعض أجزاء البلاد عن بعضها الأخرى، فإن البحر فاصل أقوى. ولقد اعتدنا أن ننظر إلى الماء على أنه عامل انفصال وتقسيم؛ وفي الآونة الأخيرة، بوجه خاص، ازداد تأكيد الرأي القائل بأن الدول لا بدّ أن تكون قد انفصلت بواسطة تضاريس طبيعية. ومع ذلك فإننا نستطيع أن نسوق، على العكس، مبدأ أساسياً هو أنه لا شيء يربط ويوحّد كما يفعل الماء لأن البلاد ليست شيئاً آخر سوى أحواض الأنهار.

مثال ذلك فإن سيليزيا، ليست سوى وادي نهر الأودر Oder وبوهيميا، وسكسونيا هما وادي نهر الالب Elbe؛ ومصر هي وادي نهر النيل. تلك هي الحال أيضاً بالنسبة إلى البحر، كما سبق أن أشرنا؛ أمّا الجبال فهي وحدها التي تفصل وتقسم، وهكذا نجد أن جبال البرانس تفصل، على نحو قاطع، بين أسبانيا وفرنسا. ولقد ظل الأوروبيون على اتصال دائم بأمريكا وجزر الهند الشرقية منذ اكتشافها، لكنهم نادراً ما نفذوا إلى داخل أفريقيا وآسيا، لأن الاتصال عن طريق الأرض أصعب بكثير جداً من الاتصال عن طريق الماء. ولم يصبح البحر المتوسط مركزاً للحياة القومية إلا لكونه بحراً فحسب، فلنلق الآن نظرة على شخصية الأمم التي يتحكم فيها ذلك العنصر الثالث.

إن البحر يعطينا فكرة اللامتعين، واللامحدود، واللامتناهي. وعندما يشعر الانسان بلا تناهيه الخاص في ذلك اللامتناهي الذي يقدمه له البحر يجد في ذلك حافزاً مشجعاً على تجاوز نطاق المحدود: فالبحر يدعو الانسان إلى الغزو والفتح،

www.aleppogate.com

وإلى النهب والقرصنة. لكنه يدعوه أيضاً إلى التجارة والكسب الشريف. أمّا الأرض، وسهول الوادي في حد ذاتها، فتربط الانسان بالتربة وتشدّه اليها، وتجعله خاضعاً لمجموعة لا نهاية لها من التبعيات؛ لكن البحر يخرجه من هذه المجالات المحدودة للفكر والسلوك. صحيح أن أولئك الذين يجوبون البحار يستهدفون الربح، لكن الوسائل في هذه الحالة تتضمن لوناً من المفارقة من حيث أنهم يجازفون بثروتهم وحياتهم لكي يحصلوا عليها. ومعنى ذلك أن الوسائل هي بالضبط عكس الغاية التي يستهدفونها؛ وذلك ما يرفع من شأن كسبهم وعملهم ويجعله شيئاً شجاعاً ونبيلاً. فالشجاعة تدخل بالضرورة في التجارة، وفيها ترتبط الجرأة بالحكمة؛ ذلك لأن الجرأة في مواجهة البحر لا بدّ أن تشمل الحذر والاحتراس، بل والدهاء، ما دام عليها أن تتعامل مع أكثر العناصر غدراً وخداعاً. فهذا السهل الممتد إلى غير حد، يستسلم على نحو مطلق، ولا يقاوم أي ضغط، ولا حتى لفحة الريح، كما يبدو بريئاً إلى أقصى حد، خاضعاً، مستسلماً، صديقاً متملقاً، على أن الاستسلام بعينه هو الذي يحول البحر إلى أخطر العناصر وأقساها. ويواجه الانسان هذا الغدر والعنف بقطعة خشب بسيطة فحسب، واثقاً تماماً في شجاعته وحضور ذهنه، وعلى هذا النحو ينتقل من أساس صلب ثابت (هو الأرض) إلى دعامة غير مستقرة (هي البحر) حاملاً معه أرضه الصناعية (وهي السفينة). هذه السفينة، أو بجعة البحر هذه، التي تقطع السهل المائي بحركات رشيقة وسريعة أو تحطّ عليه دوائر ــ هي آلة يسجل اختراعها قدراً من الفخر لجرأة الانسان وشجاعته، كما يسجل أيضا أكبر قدر من الشرف لذكائه. على أن الصروح السياسية الرائعة التي بنتها الدول الآسيوية، تفتقر إلى هذا الامتداد للبحر فيما وراء الحدود، رغم أنها هي نفسها متاخمة للبحر ــ كما هي الحال في الصين مثلاً. فالبحر عندهم هو الحد النهائي للأرض، وموضع انتمائها، ومن هنا لم تكن لهم به علاقة إيجابية. أمّا النشاط الذي يدعوهم البحر إليه فهو من لون خاص تماماً، ومن هنا تظهر تلك الحقيقة التي تقول إن الأرض الساحلية تنفصل تقريباً، على الدوام، عن دول الداخل رغم أنها ترتبط معها عن طريق النهر. وهكذا انفصلت هولندا عن ألمانيا، والبرتغال عن أسبانيا.

واتساقاً مع هذه المعطيات، يمكننا أن نتناول بالدراسة أجزاء الكرة الأرضية الثلاثة التي لها أهمية من حيث التاريخ. وفيها تتجلّى المبادىء الثلاثة المميزة بطريقة ملحوظة، ولكن بدرجات متفاوتة: فالسمة البارزة لنضاريس أفريقيا هي

www.aleppogate.com

الأرض المرتفعة، وهي في آسيا التقابل بين المناطق النهرية والمرتفعات أمّا في أوروبا فهي امتزاج هذه العناصر المختلفة.

ينبغي تقسيم أفريقيا إلى ثلاثة أقسام: الأول يقع جنوبي الصحراء الكبرى، وهي أفريقيا على الأصالة، وهي المناطق الجبلية التي تكاد تكون مجهولة لنا تماماً، مع أرض ساحلية ضيقة على طول البحر. والقسم الثاني يقع شمالي الصحراء وهو أفريقيا الأوروبية (إنْ شئنا أن نسميها كذلك) وهو أرض ساحلية. أمّا القسم الثالث فهو منطقة نهر النيل، وهي أرض الوادي الوحيدة، وهي تتصل بآسيا.

ظلّت افريقيا على الأصالة، على قدر ما يستطيع التاريخ أن يعود القهقرى — مغلقة أمام جميع أنواع الاتصال مع بقية أنحاء العالم — إنها أرض الذهب المنضغط داخل ذاته — أرض الطفولة، التي ترقد فيها وراء نهار التاريخ الواعي، لذاته، يلفها حجاب الليل الأسود[٦٨]. ولم تنشأ شخصيتها عن طبيعتها الإستوائية فحسب، وإنما من تكوينها الجغرافي أساساً: والمثلث الذي تشكله (إذا ما أخذنا الشاطيء الغربي — الذي يمثل في خليج غينيا زاوية منفرجة بقوة، — على أنه ضلع، والشاطيء الشرقي بنفس الطريقة حتى رأس جاردافو كضلع آخر) هو مركب في ضلعين من أضلاعه، بحيث يكون له شريط ساحلي غاية في الضيق غير صالح للسكنى إلاّ في بقاع ضئيلة معزولة. ويلي هذا الشريط في الداخل حزام من أراضي المستنقعات مع خصوبة هائلة في النباتات — وهذا هو الموطن الأثير لدى الوحوش الضارية، والثعابين من جميع الأنواع، وهي أرض تخوم يعتبر جوها مسموما للأوروبيين، وتشكل هذه التخوم أساساً سلسلة دائرية من الجبال العالية، التي لا تخترقها الأنهار إلاّ في مسافات متباعدة فحسب، وبحيث لا تسمح، حيث توجد هذه الأنهار، بأي ارتباط مع الداخل. ذلك لأن القطاع

---

(٦٨) لاحظ أن هيجل يتحدث هنا قبل عصر الكشوف الجغرافية لأفريقيا، وهذا نراه يتحدث عن قلب أفريقيا بوصفه أرضا مجهولة. وفي ذلك الحين لم يكن الاستعمار الأوروبي لأفريقيا قد بدأ بعد بصورة واضحة.

ولاحظ أيضا أوصافه الرومانتيكية لأفريقيا السوداء، وسيطرة المنظور الأوروبي على وصفه لانعزالها وبدائيتها (مع أن التاريخ الأوروبي الأصل — قد أثبت فيما بعد وجود حضارات مزدهرة في أفريقيا خلال العصور الوسطى سواء في غانا أو ساحل الذهب أم في مالي أم في داهومي.. الخ). [المترجم].

www.aleppogate.com

سلسلة الجبال لا يحدث إلّا نادراً، وفي أسفل الجانب العلوي من السلسلة، في قنوات ضيقة فحسب، توجد فيها كثير من مساقط المياه غير الصالحة للملاحة، والتيارات التي تتقاطع في إضطراب عنيف. وخلال القرون الثلاثة، أو الثلاثة والنصف، التي عرف الأوروبيون فيها هذه النحوم، واستولوا فيها على بعض المناطق وضموها إلى حوزتهم، ولم يعبروا هذه الجبال إلّا في أماكن متفرقة [ولم يحدث ذلك إلّا في فترات قصيرة] لكنهم لم يستقروا في أي مكان يقع وراءها. أمّا الأرض التي تحيط بهذه الجبال فهي أرض مرتفعة مجهولة، وهي التي شق الزنوج — في أحوال نادرة — طريقهم منها. ولقد حدث في القرن السادس عشر أن جاءت، من أماكن عديدة وبعيدة جداً، موجات من الغزو المرعب قام بها البدو الرحل واندفعوا في اتجاه سكان المنحدرات المسالمين. ونحن لا نعرف ما إذا كانت قد حدثت حركة في الداخل أم لا، وإذا كانت قد حدثت فما نوعها، وكل ما نعرفه عن قبائل البدو هذه هو التضاد بين سلوكهم في حروبهم وغزواتهم ذاتها، التي يتجلّى فيها أعظم قدر من اللا إنسانية الوحشية، والهمجية البغيضة وبين سلوكهم عندما زال غضبهم أعني في أوقات السلام، التي ظهروا فيها أناساً طيبين يبدون الود نحو الأوروبيين، عندما عرفوهم عن كثب. ويصدق ذلك على قبائل « الفولاني Fullans » وقبائل « ماندنجو Mandingo » التي تقطن سلسلة جبال السنغال وجامبيا. أمّا القسم الثاني من أفريقيا فهو منطقة وادي النيل، أعني مصر، التي كانت مهيأة لأن تصبح مركزاً قوياً للحضارة المستقلة، ولذلك فهي تبدو معزولة ومنفردة في أفريقيا مثلما تبدو إفريقيا نفسها في علاقتها بالأجزاء الأخرى من العالم. والجزء الشمالي من أفريقيا، الذي يمكن أن يطلق عليه بصفة خاصة إسم: أرض الساحل [إذْ أن مصر كثيراً ما كانت ترتد إلى نفسها بواسطة البحر المتوسط] يقع على البحر المتوسط وعلى المحيط الأطلنطي وهو اقليم رائع كانت توجد فيه قرطاجة فيما مضى — وتوجد به الآن مراكش الحديثة، والجزائر، وتونس، وطرابلس. ولقد كان من الواجب ربط هذا الجزء من أفريقيا بأوروبا، ولا بدّ بالفعل أن يرتبط بها، ولقد بذل الفرنسيون أخيراً جهوداً ناجحة في هذا الاتجاه[٦٩]. فهو — مثل آسيا الصغرى — يبدو متجهاً نحو أوروبا. ها هنا استقرّ القرطاجيون، والرومان، والبيزنطيون، والمسلمون، والعرب، تباعاً، كما ناضلت المصالح الأوروبية لكي تجد على هذه الأرض موطئاً لأقدامها.

---

(٦٩) من الغريب حقاً أن يسوق فيلسوف عملاق مثل هيجل — الذي يُعدّ من أكبر الفلاسفة =

www.aleppogate.com

هناك صعوبة في فهم الطابع الأفريقي الخاص. لأنه ينبغي علينا حين تشير إليه أن تتخلى تماماً عن المبدأ الذي يصاحب على نحو طبيعي جميع أفكارنا ــ وهو مقولة الكلية. فالسمة البارزة للحياة الزنجية هي أن الوعي لم يبلغ بعد مرحلة التحقيق الفعلي لأي وجود موضوعي جوهري مثل: الله، أو القانون، اللذين ترتبط بهما مصلحة الإنسان، وفيهما يحقق وجوده الخاص. والإفريقي في وجوده العيني الموحد، الذي يتسم التجانس والتخلف، لم يبلغ بعد تلك المرحلة التي يميز فيها بين ذاته بوصفه فرد وبين كلية وجوده الجوهري، بحيث أنه يفتقر تماماً إلى معرفة أن هناك وجوداً مطلقاً آخر أعلى من ذاته الفردية. فالرجل الزنجي، كما لاحظنا من قبل، يمثل الإنسان الطبيعي في حالته الهمجية غير المروضة تماماً ولا بدّ لنا، إن أردنا أن نفهمه فهماً حقيقيا سليما، أن نضع جانبا كل فكرة عن التبجيل والأخلاق، وكل ما نسميه شعوراً أو وجداناً، فلا شيء مما يتفق مع الإنسانية يمكن أن نجده في هذا النمط من الشخصية. والروايات الغزيرة والمفصلة التي يرويها المبشرون تؤكد ذلك تماماً[٧٠]. ويبدو أن العقيدة الإسلامية كانت العامل الوحيد الذي أدخل الزنوج في نطاق الحضارة. ولقد فهم المسلمون

= الذين دافعوا عن كرامة الانسان وحريته مثل هذا المبرر العقلي للاستعمار الفرنسي في شمال إفريقيا ــ ويعتقد أن هذا الجزء من القارة الإفريقية يجب أن يرتبط بأوروبا، ويستخدم منطقاً زائفاً يجعل هذا الوجوب أمراً يحتمه العقل بحيث يبدو أن كل ما فعلته فرنسا حين بدأت استعمارها هو أنها حققت الوجوب العقلي الذي يعتقد به هيجل! لكن من الواضح أن هيجل كانت تنقصه المعلومات التي تمكنه من تكوين صورة صحيحة عن أفريقيا. لكن من الواضح أن جهود الفرنسيين باءت ــ أخيراً أيضا ــ بالفشل في هذا الاتجاه الذي يتحدث عنه. والواقع أن كل نظرة إلى الإنسان على أنه تابع أو خاضع، أعني كل نظرة « لا إنسانية » ــ كل نظرة لا تجعله تعبا ذاتيا، بلغة هيجل نفسه ــ أي مستقلاً، سوف تبوء بالفشل. [المترجم].

(٧٠) قد تبدو أحكام هيجل هنا وكأنها تؤلف تمهيدا فكريا لحركة الإستعمار الأوروبي في إفريقيا، وتبريرا عقليا ممتازا لها. مع أن هيجل ــ وهذا أمر غريب حقا ــ يحذرنا في مكان آخر من روايات المبشرين التي يعتمد عليها هو نفسه هنا فيقول: «ولذلك فإن بعض الروايات المتأخرة ينبغي أن نتناولها مع شيء من الحذر، خصوصا وأن المبشرين يكونون عداة طبيعيا للسحر، وهو الديانة الطبيعية للزنوج». راجع الترجمة الإنجليزية لكتابه « محاضرات في فلسفة الدين » المجلد الأول ٢٩٥ ــ ٢٩٦ [المترجم].

Hegel's Lectures on the Philosopy of Religion- Eng. Trans by E.B. Spiers Vol. I P.

www.aleppogate.com

أيضاً، أفضل من الأوروبيين، كيف ينفذون إلى داخل هذه البلاد. ويمكن أن نقدّر على نحو أفضل درجة الحضارة التي يمثلها الزنوج إذا ما تأملنا المرحلة التي يمثلها الدين عندهم. إن ما يشكل أساس التصورات الدينية هو الوعي من جانب الإنسان بقوة عالية ــ حتى على الرغم من أن الإنسان قد يتصور هذه القوة على أنها قوة طبيعية فحسب Vis Naturae ــ يشعر أمامها بأنه موجود ضعيف متواضع، فالدين يبدأ من الوعي بأن هناك شيئاً أعلى من الإنسان[٧١] لكن حتى هيرودت يسمي الزنوج بالسحرة. على أن الإنسان في حالة السحر لا يكون لديه فكرة الله، ولا فكرة الإيمان الأخلاقي، ذلك السحر ينظر إلى الإنسان على أنه القوة العليا، وعلى أنه يشغل، هو وحده، مركز الأمر المسيطر على قوى الطبيعة، ومن ثم فلسنا أمام شيء من العبادة الروحية لله، أو من ملكوت الحق. فالإله يرعد ، لكننا لا نتعرّف عليه بأنه الله على هذا الأساس إذ أن الله لا بدّ أن يكون أمام الروح البشري أكثر من صانع للرعد، لكن الأمر يختلف عن ذلك عند الزنوج[٧٢]. فعلى الرغم من أنهم على وعي، حتماً، باعتمادهم على الطبيعة لأنهم

---

295. Routledge and Kegan Paul. London, 1962.

(٧١) المفروض في الديانة المتطورة أنها تفصل بين العقل الكلي الذي هو الله، وبين العقل الجزئي الذي هو الإنسان، بحيث يصبح هدف الدين كله عبور هوّة الإنفصال هذه، والتوفيق بين الله والإنسان. وحيثما لا يكون هناك هذا الإنفصال لا يكون هناك دين إلاّ في صورة فجة. والصورة الأولى المباشرة للدين عند هيجل هي السحر، وهي التي نجدها عند الزنوج كما سيقول بعد قليل. ولا يوجد في هذه الديانة فصل بين الكلي والجزئي، فالكل ــ وهو الله ــ ليس موجوداً، وإنما يصبح كل شيء جزئياً، فليس ثمة سوى هذه الشجرة، وهذا النهر، وهذا الإنسان... إلخ. ومن هنا لا يستطيع الإنسان أن يميز نفسه عن الطبيعة لكن سمو الروح لا بدّ أن يظهر إلى الوعي بعض الشيء، فيشعر الإنسان بأنه يعلو على الأحجار والصخور، والسحب، ومن ثم فهو يسيطر عليها بحيث تمتد إرادته فيكون في استطاعته أن يأمر العواصف، والمياه والسحب... الخ فتنصاع لأمره، وذلك هو السحر. وإذا كان الإنسان لا يدرك ذاته على أنها موجود كلي عاقل بل هي ذات فردية بكل خصائصها الجزئية البشرية، فإن هذه السيطرة لا يمكن أن تكون لغاية كلية، وإنما للعواطف، والانفعالات، والرغبات والأهواء الجزئية الخالصة: «لأن الأنا هي الساحر، وهي تقهر الشيء بالشيء ذاته: وبسيطرة الانفعال على الأشياء بطريقة مباشرة» كما يقول هيجل في كتابه «محاضرات في فلسفة الدين» المجلد الأول ص ٣٠٢ من الترجمة الانجليزية، وراجع في هذا الموضوع كله من ص ٢٩٠ إلى ص ٣١٦ [المترجم].

(٧٢) قارن أيضا ما يقوله من أن الله في هذه الصورة الأولى للديانة الطبيعية يرعد: «لكن الله =

www.aleppogate.com

يحتاجون إلى الآثار المفيدة للعواصف، والمطر، وتوقف فترة الأمطار.. الخ ــ فإن ذلك لا يؤدي بهم إلى الوعي بقوة أعلى: إنهم هم الذين يسيطرون على عناصر الطبيعة، وهذا ما يطلقون عليه إسم « السحر ». وللملوك طبقة كهنة يتحكّمون من خلالهم في التغيرات التي تحدث في عناصر الطبيعة. وكل موقع له « سحرته » الذين يقومون بتأدية طقوس خاصة، وبجميع أنواع الحركات الجسمية، والإيماءات، وبألوان من الرقص، والصخب، والضجيج، والصياح ووسط هذا الخليط المضطرب يبدأون في ممارسة تعاويذهم. أمّا العنصر الثاني في ديانتهم فيبرز في إعطاء شكل خارجي لهذه القوة التي تعلو على الطبيعة مسقطين قوتهم الخفية على عالم الظواهر بواسطة مجموعة من التصويرات Images.. ولذلك فإن ما يتصورونه قوة ليس شيئاً موضوعياً حقيقياً له وجود جوهري قائم بذاته ومختلف عنه، وإنما هو أول شيء يصادفونه. وهذا الذي يصادفونه يأخذونه بغير تمحيص، ويرفعونه إلى مرتبة : « الجني أو الروح الحارس Genius » وقد يكون حيواناً، أو شجرة، أو حجراً، أو صورة خشبية، وتلك هي تميمتهم Fetish(٧٣). ــ وهي كلمة كان البرتغاليون أول مَنْ تداولها، وهي مشتقة من كلمة Feitzo البرتغالية التي تعني: السحر. ويتمثل في التميمة لون من الاستقلال الموضوعي في مقابل الخيال العشوائي عند الفرد: لكن لما كانت الموضوعية لا تعدو أن تكون خيال الفرد وقد أسقطه في المكان، فإن الفردية البشرية تظل مسيطرة على الصورة التي اتخذتها. فإنْ وقع بلاء ولم تستطع التميمة دفعه كأن يجفّ المطر، أو يسوء المحصول، فإنهم يربطون التميمة، ويضربونها، ويدمرونها، ويتخلصون منها ليصنعوا غيرها في الحال، وعلى هذا النحو تظل التميمة في نطاق قدرتهم. مثل هذه التميمة ليس لها إستقلال كموضوع للعبادة الدينية؛ كما أنها ليس لها استقلال جمالي بوصفها عملا فنيا، وإنما هي فحسب مخلوق يعبر عن اختيار

= يستطيع أن يفعل ما هو أفضل من الرعد المحض: إنه يستطيع أن يكشف عن ذاته، والروح لا تسمح لنفسها أن تتسم بسمات الظواهر الطبيعية، فالعلاقة العليا هي علاقة العبادة الحرة » محاضرات في فلسفة الدين ص ٢٩٩ ــ ٣٠٠ من المجلد الأول من الترجمة الإنجليزية. [المترجم].

(٧٣) المقصود بالتميمة أو « الفتيش » المعبود الذي كانت الشعوب البدائية تضفي عليه القداسة، وترى أن له قدرة سحرية على حماية صاحبه ومساعدته وقت الحاجة ودفع الكوارث عنه. وهو الإسم الذي أطلقه البرتغاليون على أهالي القبائل المتوحشة في إفريقيا [المترجم].

www.aleppogate.com

اعتباطي لمن صنعه، ويبقى دائمًا في متناول يده. وباختصار ليست هناك علاقة تبعية في الدين؛ غير أن هناك مظهراً واحداً يشير إلى شيء فيما وراء الواقع — وهو عبادة الموتى، التي ينظرون فيها إلى أسلافهم وأجدادهم الموتى على أنهم قوة مؤثرة على الأحياء. وفكرتهم في ذلك هي أن هؤلاء الأسلاف يمارسون الانتقام وألواناً مختلفة من الأذى على الإنسان، تماماً بنفس المعنى الذي كانت العصور الوسطى تخلعه على السحرة والعرّافين. ومع ذلك فهم لا يعتبرون قوة الموتى أعلى من قوة الأحياء، لأن الزنوج يتحكمون في الموتى ويضعون لهم سحراً ورقيا. وعلى هذا النحو تظل هذه القوة على الدوام، وبطريقة جوهرية، خاضعة لسيطرة الذات الحية. ولم ينظر الزنوج إلى الموت نفسه على أنه قانون طبيعي كلي، بل اعتقدوا أنه يأتي من سحرة أشرار. وتتضمن عقيدتهم هذه، بالتأكيد، الاعتقاد بأن الانسان يعلو على الطبيعة، إلى حد أن الإنسان ينظر إلى هذه الأشياء الطبيعية على أنها أداة ووسيلة ولا يعطيها شرف معاملتها على أنها تتحدد بذاتها، بل يتحكم هو فيها[٧٤].

لكن القول بأن الإنسان ينظر إليه على أنه الأعلى، يترتب عليه أنه لا يعطي لنفسه إحتراما، ذلك أنه لا يصل إلى وجهة نظر تلهمه إحتراماً حقيقياً إلّا عن طريق الوعي بوجود أعلى. إذ لو كان الإختيار العشوائي هو المطلق أي لو كان هو الموضوعية الجوهرية الوحيدة التي تتحقق لما استطاعت الروح أن تكون على وعي بأية كلية. ومن هنا أطلق الزنوج لأنفسهم العنان في الاحتقار الكامل

---

(٧٤) وهذا يعتقد الزنوج — كما يقول هيجل — أن الإنسان لا يموت موتاً طبيعيا قط، لأن الطبيعة ليس لها قوة على الإنسان، وإنما العكس هو الذي يقوقها في قوته. ومن ثم فهم ينظرون إلى الإنسان على أنه أقوى من أن تقتله قوى غامضة مثل قوى الطبيعة. ولهذا فإن المرضى الذين لا يداويهم سحر السحرة يقتلهم أصدقاؤهم. كما أن القبائل المتوحشة في أمريكا الشمالية تقتل المسنين من الذين يصلون إلى حالة الضعف والعجز، ودلالة هذا العمل واضحة — فيما يقول هيجل — هي أنهم لا يريدون للانسان أن يموت بوسائل الطبيعة، إذ لا بد أن يكون شرف القتل بأيدي بشرية. وهناك شعوب أخرى تؤمن بأن كل شيء لا بد من تدميره إذا ما مات الكاهن الأكبر ميتة طبيعية، وهو لهذا لا بد من قتله إذا ما نال منه الضعف والمرض. وإذا مات الملك قتلوا عددا كبيرا من الأشخاص معتقدين بذلك أنهم إنما يذبحون شيطان الملك — راجع في ذلك كله « محاضرات في فلسفة الدين لهيجل » ص ٢٩٧ من المجلد الأول، الترجمة الإنجليزية [المترجم].

www.aleppogate.com

للبشرية، الذي هو السمة الأساسية لجنسهم من حيث صلته بالعدالة والأخلاق. كذلك لا يوجد لديهم أي علم بخلود الروح، رغم أنهم كانوا يعتقدون في ظهور أشباح للموتى، ويصل إنحطاط قيمة الإنسان عندهم إلى درجة لا تكاد تُصدَّق؛ فالطغيان لا يُنظر إليه على أنه ظلم، ويُنظر إلى أكل لحوم البشر على أنه مسألة عادية ومسموح بها. أمّا نحن فنمتعنا الغريزة من مثل هذا السلوك، لو كان في إستطاعة المرء أن يتحدث عن الغريزة على الإطلاق كشيء يملكه الإنسان. لكن الأمر ليس على هذا النحو عند الرجل الزنجي. فالتهام اللحم البشري، يتفق تماما مع المبادىء العامة للجنس الأفريقي. فاللحم البشري عند الزنجي الشهواني ليس سوى موضوعاً للحس، بل مجرد لحم فحسب. وعند وفاة الملوك يُقتل المئات ويؤكلون ، ويُذبح المسجونون ويُباع لحمهم في الأسواق، ومن المألوف أن يلتهم المنتصر قلب عدوه بعد ذبحه، وكثيراً ما يحدث عند تأدية طقوس السحر أن يقتل الساحر أول من يصادفه ويوزّع جسده على المارة. وهناك خاصية أساسية أخرى تتعلق بالزنوج هي الرق، فلقد استعبد الأوروبيون الزنوج وباعوهم لأمريكا، وإذا كان ذلك أمراً سيئاً، فإن مصيرهم في بلادهم ذاتها أشد سوءا حيث توجد عبودية مطلقة بنفس المقدار، ذلك لأن المبدأ الجوهري للرق أو العبودية هو أن يكون الإنسان قد وصل إلى مرحلة الوعي بحريته وبتحدر بالتالي إلى مرتبة الشيء المحض — أعني أنه يصبح موضوعا بغير قيمة. والمشاعر الأخلاقية عند الزنوج ضعيفة للغاية أو هي معدومة إذ شئنا الدقة، فالآباء يبيعون أبناءهم، والعكس صحيح أيضا، أعني أن الأبناء يبيعون اباءهم كلما سنحت الفرصة لأولئك أو هؤلاء. ولقد إختفت عندهم، بتأثير من العبودية المنتشرة بينهم، جميع روابط الاحترام الأخلاقي التي نعتز بها نحو بعضنا بعضا، ولا يخطر ببال الزنجي أن يتوقع من الآخرين ما نستطيع نحن أن نطلبه منهم. وكثيراً ما يكون الهدف من ممارسة نظام تعدد الزوجات عند الزنوج الحصول على عدد كبير من الأطفال ليباعوا جميعا كرقيق — وكثيراً ما تُسمَع شكاوى ساذجة في هذا الصدد، كما هي الحال مثلا في حالة ذلك الزنجي الذي كان ينتحب في لندن لأنه أصبح الآن فقيراً تماما بعد أن باع بالفعل كل ذويه. وهكذا فإن السمة التي يتميز بها إحتقار الإنسانية عند الزنوج ليست هي إزدراء الموت، بقدر ما هي الإفتقار إلى إحترام الحياة. وينبغي أن نعزو الشجاعة العظيمة التي نجدها عندهم إلى سمة إفتقارهم لاحترام الحياة هذه، التي تدعمها قوة بدنية كبيرة. وهذه الشجاعة تظهر عند أولئك الزنوج الذين كان الآلاف منهم يتعرّضون بمحض إرادتهم للموت برصاص

www.aleppogate.com

الأوروبيين وهم يقاتلونهم، فالحياة لا قيمة لها إلاّ عندما تتخذ من شيء ذي قيمة هدفا لها[٧٥].

وإذا انتقلنا الآن إلى مقولة الكيان السياسي، فسوف نرى أن طبيعة هذا الجنس كلها هي من ذلك النوع الذي يحول دون وجود مثل هذا التنظيم. فالنظرة البشرية عند هذه المرحلة هي نزعة الحسية العشوائية، مضافاً إليها كافة الإرادة، ما دامت القوانين الزوجية الكلية: (مثل قوانين أخلاق الأسرة) لا يمكن أن يعترف بها هنا، إذْ لا توجد الكلية عندهم إلاّ كاختيار ذاتي عشوائي، ولذلك فإن الرابطة السياسية عندهم لا يمكن أن يكون لها طابع القوانين الحرة التي توحّد الجماعة، فليس ثمة رابطة بينهم على الإطلاق، ولا تقييد للإرادة العشوائية ولا شيء يمكن أن يربط الدولة لحظة واحدة سوى القوة الخارجية: فالحاكم يتربع على رأس الدولة، ذلك لأن الهمجية الحسية لا يمكن أن تكبح جماحها سوى القوة المستبدة. لكن لمّا كان المواطنون أصحاب مزاج عنيف مماثل لمزاج سيدهم، فإنهم — من ناحية أخرى — يحصرونه في نطاق حدود معينة. ويأتي بعد الرئيس — الذي سنسميه ملكا — عدد كبير من الرؤساء الآخرين الذين يتخذهم مستشارين له، ولا بدّ له أن يسعى إلى الحصول على موافقتهم إنْ هو أراد أن يشن حرباً أو يفرض مكوسا! وهو يستطيع في إطار هذه العلاقة أن يمارس سلطة متفاوتة الدرجات، وينتهز الفرصة ليتخلص، بالحيلة أو القوة، من هذا الرئيس أو ذاك. ويتمتع الملوك إلى جانب ذلك بامتيازات خاصة أخرى: فالملك عند الأشانتيين Achantees[٧٦] يرث كل الثروة التي يخلفها رعاياه بعد موتهم، وفي مناطق أخرى

---

(٧٥) الواقع أن الغالبية العظمى من الآراء التي يسوقها هيجل عن الزنوج، إنْ لم نقل كلها، تثير الحنق والسخط، فحتى شجاعتهم في مواجهة الأوروبيين جعل منها رذيلة! راجع ما سبق أن ذكرناه في المقدمة، ولست أدري من أين استمد هذه المعلومات عنهم، وما هي مصادره؟ وكيف يمكن أن يستسلم على هذا النحو لأقوال المبشرين التي حذرنا هو نفسه منها..؟ ثم كيف يبيح لنفسه أن يجعل المنظور الأوروبي، بصفة عامة، والاستعلاء المميز للرجل الأبيض والذي كان يفخر به شاعر الإستعمار رديارد كبلنج — يشوه نظرته إلى الزنوج إلى هذا الحد..؟ وهل انعدام الإنسانية هو المميز حقاً للزنوج، أم أن الجلادين الذين هاجموا هذه الشعوب البريئة، والمفكرين والشعراء والفلاسفة الذين قدموا أسخف التبريرات لمذابح البيض ضد الافريقيين، هم اللاانسانيون..؟ [المترجم].

(٧٦) قوم يقطنون منطقة أشانتي بوسط غانا بأفريقيا أسسوا مملكة وطنية قوية منذ القرن السابع =

www.aleppogate.com

يؤول للملك كل النساء غير المتزوجات، وعلى مَنْ يرغب في الزواج من إحداهن أن يشتريها منه، وإذا غضب الزنوج على مليكهم أسقطوه وقتلوه. ولقد جرت العادة في داهومي Dahomey أن يرسل المواطنون إلى الملك إذا استاءوا منه ببيض ببغاء كعلامة على سخطهم من حكمه. وفي بعض الأحيان يرسلون إليه وفداً مفوضاً ليقول له: إن عبء الحكم ثقيل عليه، وأن من الأفضل له أن يستريح قليلاً. عندئذ يشكر الملك رعاياه ويذهب إلى بيته، ويجعل نساءه تشنقه. وتزعم روايات قديمة أن دولة من النساء اشتهرت بغزواتها قد ظهرت في عصور غابرة، وكانت تلك دولة تربعت على رأسها امرأة، ولقد قيل عنها إنها سحقت ابنها في هاون ولطّخت نفسها بدمائه، وكانت حريصة على أن يكون تحت يدها باستمرار دم أطفال مذبوحين. كما قيل إنها طردت أو قتلت جميع الذكور، وأمرت بقتل جميع الأطفال الذكور. ولقد هدمت هؤلاء الحاقدات كل شيء حولهن، واضطررن إلى أعمال السلب والنهب بلا انقطاع، لأنهن لم يزرعن، وكن يتخذن من أسرى الحرب من الرجال أزواجاً، وكان على النساء الحوامل أن يبتعدن عن مخيماتهن، فإذا وضعن طفلاً تخلّصن منه. وتقول الرواية إن هذه الدولة الشائنة قد اختفت فيما بعد. وفي الدولة الزنجية نجد الملك مصحوباً على الدوام بالجلاد، الذي تُعدّ وظيفته من أعلى الوظائف، والذي يستخدمه الملك في قتل الأشخاص المشكوك فيهم، وإن كان الملك نفسه قد يلقى نحبه على يديه إذا رغب عليه القوم في ذلك. والتعصب الزنجي إذا ما استيقظ يجاوز حدود كل ما يمكن للمرء أن يتصوره، برغم ميل الزنوج إلى الإذعان والاستسلام في النواحي الأخرى. ويروي رحّالة انجليزي أنه سبق شن الحرب في بلاد الأشانتيين Achantees احتفالات مهيبة، ومن مراسيم هذه الاحتفالات: أنْ تُغسل عظام أم الملك بالدم البشري، وكمقدمة للحرب يقرر الملك شن هجوم ضد عاصمته ذاتها، كما لو كان يريد أن يستثير فيها الدرجة المطلوبة من السُّعر أو الجنون المؤقت Frenzy. ولقد أرسل الملك إلى رجل انجليزي يدعى هتشنسون Hutchinson يقول: «خذْ حذرك، أيها المسيحي، واسهر على أسرتك. لقد استلّ رسول الموت سيفه وسوف يضرب به عنق كثير من الأشانتيين فحين تُقرع الطبول فذلك نذير الموت لجميع

= عشر، خاضت حروباً كثيرة مع البريطانيين في القرن التاسع عشر انتهت بهزيمتهم عام ١٨٩٦. ثم ضمها إلى الممتلكات البريطانية على الساحل عام ١٩٠١ ثم أدمجت في مستعمرة ساحل الذهب عام ١٩٤٦.

www.aleppogate.com

غفير من الناس، تعال إلى الملك، إنْ استطعت، ولا تخشى على نفسك شيئاً ». وقرعت الطبول وبدأت مذبحة رهيبة، وطُعِن كل مَنْ تصادف وجوده في الشوارع في طريق الزنوج المسعورين. وفي أمثال هذه المناسبات يقتل الملك كل مَنْ يشتبه فيهم، وتتخذ هذه الأعمال عندئذ طابع الفعل المقدس. وهنا لنجد الزنجي يتمسّك بكل فكرة تُطْرَح على ذهنه، ويحققها بكل قوة إرادته، غير أن هذا التحقق يتضمن دماراً بالجملة. إن هؤلاء الناس يستمرون في هدوء لفترة طويلة، لكن فجأة تعتمل الانفعالات في نفوسهم، وعندئذ يخرجون عن وعيهم تماماً، وما يسبب الدمار الذي ينتج عن استثارتهم هو عدم وجود فكرة إيجابية أو تفكير واع يؤدي إلى هذه الاضطرابات، وإنما أدّى إليها انفعال حماسي بدني أكثر منه روحي. وحين يموت الملك في « داهومي » تتفكك عرى المجتمع وروابطه، ويدبّ الخراب والفوضى في قصره بغير تمييز، وتُذبح كل نساء الملك (ويبلغ عددهن في داهومي على وجه التحديد ٣٣٣٣ امرأة) ــ وتبدأ في المدينة كلها مذبحة، إلى جانب السلب والنهب تجاوز كل حد. وينظر نساء الملك إلى موتهن هذا على أنه ضرورة، فيذهبن تلقائه في أحلى زينة. ويبادر أصحاب السلطة في البلاد إلى إعلان اسم الحاكم الجديد لكي يضعوا حداً لهذه المجزرة[٧٧].

من هذه السمات المختلفة يتضح أن الشخصية الزنجية تتميز بالافتقار إلى ضبط النفس. وتلك حالة تعجز عن أي تطور أو أي ثقافة، ولهذا كان الزنوج باستمرار على نحو ما نراهم اليوم. والرابطة الجوهرية الوحيدة التي وجدت ودامت بين الزنوج والأوروبيين هي رابطة الرق. ولا يرى الزنوج في هذه الرابطة شيئاً مشيناً لا يليق بهم، بل إن الزنوج عاملوا الانجليز أنفسهم على أنهم أعداء لأنهم بذلوا جهداً كبيراً في الغاء الرق وتجارة الرقيق في بلادهم. ذلك لأن الملوك ينظرون نظرة بالغة إلى بيع الأسرى من أعدائهم، بل حتى رعاياهم أنفسهم. ويمكن إذا ما نظرنا إلى الأمر في ضوء هذه الحقائق، أن ننتهي إلى القول بأن الرق كان فرصة لزيادة الشعور الإنساني بين الزنوج. والنظرية التي نستنتجها من حالة الرق هذه بين الزنوج، وهي تشكل الجانب الوحيد الهام في بحثنا، هي نفس النظرية التي نستخلصها من الفكرة: وهي

(٧٧) قارن أيضا تفصيلات كثيرة يرويها هيجل عن عادات الزنوج وطقوسهم وشعائرهم في كتابه: « محاضرات في فلسفة الدين » المجلد الأول ص ٢٩٧ وما بعدها، من الترجمة الانجليزية السالفة الذكر [المترجم].

www.aleppogate.com

أن « الحالة الطبيعية » ذاتها هي حالة من الظلم التام المطلق، فهي انتهاك للحق والعدل(٧٨). وكل درجة متوسطة بين هذه الحالة وبين التحقيق الفعلي للدولة العقلانية تحتفظ، كما يمكن أن يتوقع المرء بجوانب وعناصر من الظلم. ولهذا السبب فإننا نجد الرق حتى في الدولة اليونانية والرومانية، كما نجد أن القنانة أو عبودية الأرض Serfdom(٧٩) ظلت سائدة حتى عصور قريبة جداً. لكن الرق حين يوجد في دولة ما على هذا النحو يشكّل مرحلة متقدمة بالقياس إلى الوجود المادي المحض المنعزل، أي مرحلة تعليم ونوع من المشاركة في أخلاق أعلى وثقافة ترتبط به. إن الرق، في ذاته ولذاته، ظلم، لأن ماهية الإنسان هي الحرية، ولكن لا بدّ لتحقيق هذه الحرية من أنْ ينضج الإنسان، ولذلك فإن الإلغاء التدريجي للرق أحكم وأعدل من إزالته فجأة.

علينا أن نترك أفريقيا عند هذه النقطة ولا نعود إلى ذكرها مرة أخرى، لأنها ليست جزءاً من تاريخ العالم، ولا تكشف عن حركة أو تطور، وما فيها من حركات تاريخية ــ وهي تلك التي تقع في الجزء الشمالي ــ تنتمي إلى العالم الآسيوي والعالم

---

(٧٨) الفكرة الأساسية عند هيجل هي أن التاريخ سلسلة من تطور الوعي بالحرية: فهو يبدأ من الحرية في حالة كمون، أو في ذاتها على حد تعبيره، إلى أن يصل إلى الحرية لذاتها في الدولة وهي النظام السياسي الذي يعبر في رأيه عن التحقق الفعلي للحرية، ثم تتطور الدولة إلى أن تصل إلى الدولة التي عاصرها وهي الدولة البروسية. ومن هنا فقد عارض الرأي القائل بأن الإنسان حر « بالطبيعة »، أو أن الحالة الطبيعية الأولى للمجتمعات البشرية كانت تعبر عن حرية الإنسان، وأن المجتمع هو الذي قيد هذه الحرية وحدّ منها بما وضعه من نظم وقوانين، وتشريعات مختلفة. وهو ينتهي من تحليله للمجتمعات البدائية الأولى إلى القول بأن الفكرة المستخلصة من تاريخ هذه الشعوب هي أن الإنسان في بداية تاريخه كان يرزح تحت نير الرق والظلم والعبودية أعني أنه لم يكن حراً، وأن تقدم التاريخ البشري يعني تقدم الحرية. وتلك هي نفس النظرية التي تعبر عنها « الفكرة » عند هيجل. راجع أيضاً معارضته فيما سبق للرأي القائل بأن الإنسان حر بالطبيعة من ص ١٠٥ حتى ص ١٠٦ من هذه الترجمة العربية لفلسفة التاريخ [المترجم].

(٧٩) تختلف القنانة أو عبودية الأرض عن نظام الرقيق المألوف الذي يقوم بأعمال مختلفة، وفي أي مكان، من زاوية أن هؤلاء رقيق يعملون في أرض سيد إقطاعي لكنهم ملك للأرض لا للسيد، بمعنى أن ملكيتهم تنتقل من هذا السيد إلى سيد آخر تآول إليه ملكية تلك الأراضي وهو نظام كان سائداً في العصور الوسطى وجانب كبير من العصور الحديثة حتى تم الغاؤه تدريجياً [المترجم].

www.aleppogate.com

الأوروبي. ولقد لعبت قرطاجة هناك دوراً انتقاليا هاما في الحضارة، لكنها، بوصفها مستعمرة فينيقية، لهذا تنتمي إلى آسيا[٨٠]. وسوف ندرس مصر بوصفها مرحلة انتقال الروح البشري من مرحلته الشرقية إلى مرحلته الغربية، لكنها لاتنتمي إلى الروح الأفريقي. والواقع أن ما نفهمه من اسم إفريقيا هو الروح غير المتطور الذي لا تاريخ له، ولا تطور أو نمو، والذي لا يزال منغلقا تماما وفي حالة الطبيعة المحض، والذي كان ينبغي أن يعرض هنا بوصفه واقعا على عتبة تاريخ العالم فحسب.

والآن، وبعد أن استبعدنا هذا العنصر التمهيدي، نجد أنفسنا للمرة الأولى على المسرح الحقيقي للتاريخ: ولم يبق أمامنا الآن إلاّ أن نقدّم عرضا تخطيطيا للأساس الجغرافي للعالم الآسيوي والأوروبي نمهد به لبحثنا. ومما له دلالته أن آسيا تمثل الجهة الشرقية من جهات الكرة الأرضية ــ أي أنها منطقة الأصل والمنشأ. صحيح أنها عالم غربي بالنسبة إلى أمريكا، ولكن لما كانت أوروبا تمثل على وجه العموم مركز العالم القديم وطرفه النهائي، أي الغرب، بمعنى مطلق، فإن آسيا، بالمثل، هي الشرق المطلق.

لقد أشرق في آسيا ضوء الروح، ومن ثم بدأ التاريخ الكلي.

علينا الآن أن ندرس الأقاليم المختلفة في آسيا، ويمثل تكوينها الطبيعي متناقضات مباشرة والعلاقة الجوهرية بين هذه المتناقضات. وعناصرها الجغرافية المختلفة هي تكوينات كاملة ومتطورة في ذاتها.

لا بدّ أن نحذف، في البداية، المنحدر الشمالي، وأعني به سيبيريا. فهذا المنحدر ــ ابتداء من سلسلة جبال ألطاي Altai[٨١] بأنهارها الجميلة التي تصبُّ في المحيط الشمالي ــ لا يهمنا هنا: ذلك لأن المنطقة الشمالية، كما سبق أن ذكرنا،

---

(٨٠) كان الفينيقيون ــ وهم قوم كانوا يشغلون الساحل السوري ــ اللبناني قديماً ــ فلاحين وتجاراً ومستكشفين، وقد أنشأوا لهم مراكز قوية: مثل قرطاجة وبونيكا، ولهذا فإن هيجل يعتبر حضارة قرطاجة امتداداً لحضارة السوريين ــ اللبنانيين القدماء؛ أعني حضارة آسيوية لا إفريقية [المترجم].

(٨١) سلاسل جبلية في جنوب غرب سيبيريا وقازاقستان وغرب منغوليا، ومعظمها يقع في إقليم ألطاي الذي يضم مساحة واسعة من أراضي سيبيريا السوداء الغنية، يجري فيه نهر أوب ومعظم سكانه من الروس، لكن السيادة في الجبال لشعب أويروت [المترجم].

www.aleppogate.com

تقع خارج نطاق التاريخ. لكن الجزء الباقي من آسيا يتضمن ثلاثة أقاليم هامة جداً؛ الأول كتلة من الأرض المرتفعة كما هي الحال في أفريقيا، مع حزام من جبال تشتمل على أعلى قمم العالم. وهذه المنطقة يحدها من الجنوب والجنوب الشرقي سلسلة جبال مستاج Mustag، أو امايوس Imaus التي توازيها، في أقصى الجنوب، سلسلة جبال الهملايا. وتمتد في اتجاه الشرق سلسلة جبال من الجنوب إلى الشمال تقسم حوض نهر آمور Amur. وفي الشمال تقع سلسلة جبال ألطاي Altai، وسنجارين Songarian؛ وتتصل بهذه السلسلة الأخيرة في الشمال الغربي جبال موزارت Musart. وفي الغرب جبال بيلورتاج Beluttag التي ترتبط مرة أخرى بجبال مستاج عن طريق سلسلة جبال هندوكوش Hindoo- Coush.

هذه السلسلة من الجبال العالية تخترقها أنهار تحميها سدود، وتشكل مجموعة من السهول الوديانية العظيمة، وهذه السهول التي تغمرها المياه قليلا أو كثيراً، تمثل مراكز تمتاز بخصوبة ووفرة عظيمتين؛ وتتميز عن الأنهار الأوروبية، من حيث إنها لا تشكل مثل هذه الأخيرة وديانا بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة، أعني وديانا تتشعب إلى وديان أخرى، وإنما تكون سهولا نهرية. ومن هذا النوع سهل الوادي الصيني الذي شكله نهر « هوانج هو Hong- Ho »، ونهر « يانج تسي كيانج Yung-Tse Kiang Tse » (النهر الأزرق والنهر الأصفر) يليها سهول الهند التي شكلها نهر الكنج Canges. ويقل عن ذلك أهمية وادي نهر السند في الشمال، الذي يضفي طابعا خاصا على البنجاب Pungaub، ويجري في الجنوب خلال سهول رملية. وعلى مسافة من هذه المنطقة توجد أراضي دجلة والفرات، وهما نهران ينبعان من آرمينيا Armenia ويشقان مجراهما بطول الجبال الفارسية؛ وبحر قزوين Caspian وديان نهرية مماثلة؛ تلك الوديان التي شكلها في الشرق، نهر أوكس Oxus، وياكسارتس Jaxartes(أو نهرا جيحون وسيحون Gihon and Sihon) اللذان يصبّان مياههما في بحر آرال Aral. وفي الغرب تلك الوديان التي شكلها نهر فورش Cyrus، وآراكس Araxes(كور وأراس Kur and Aras) ولا بد أن تتميز الأراضي المرتفعة عن أراضي السهول والعنصر الثالث هو امتزاجهما الذي يتم في آسيا القريبة. وتنتمي إليها بلاد العرب، أرض الصحراء، أرض السهول المرتفعة، امبراطورية التعصب[٨٢]. وإلى

---

(٨٢) حكم من الأحكام المتسرعة التي تدلّ على قلة المعلومات التي توفرت لدى فيلسوفنا عن هذه المنطقة من العالم، فهو يحتشد هنا، كما هي الحال في أماكن أخرى كثيرة على مصادر غير=

www.aleppogate.com

تلك المنطقة أيضا تنتمي سوريا، وآسيا الصغرى، التي ترتبط بالبحر، والتي كانت على صلة مستمرة بأوروبا.

تصدق على آسيا، بصفة خاصة، نفس الملاحظة التي سبق أن أشرنا إليها فيما يتعلق بالفروق والاختلافات الجغرافية، أعني القول بأن الوظيفة الأساسية لسكان المناطق المرتفعة هي تربية الماشية ــ أمّا الزراعة والصناعة فهي وظيفة سكان الوديان. على حين أن التجارة والملاحة تمثلان البند الثالث والأخير. ويرتبط الاستقلال الأبوي (البطريركي) ارتباطاً وثيقا بالحالة الأولى للجماعة. أمّا الملكية الخاصة وعلاقة السيد بالعبد فترتبط بالحالة الثانية. وأمّا الحرية الاجتماعية فترتبط بالحالة الثالثة. ومما تجدر ملاحظته في الأرض المرتفعة تربية ضروب مختلفة من الماشية، وكذلك تربية الخيول والجمال، والأغنام (لكنها لا تشتهر بتربية الثيران). وينبغي علينا أيضا أن نميز الحياة الهادئة المعتادة لقبائل الرعاة عن شخصيتهم الوحشية العاتية التي تظهر في غزواتهم. ويسيطر على هؤلاء الناس دافع قوي يؤدّي بهم إلى تغيير شخصيتهم كأمة دون أن يطوّروا أنفسهم في شكل تاريخي حقيقي. وعلى الرغم من أنهم لم يكتسبوا أية شخصية تاريخية، فإن بداية التاريخ يمكن أن ترد إليهم. ولا بدّ أن نقول مع ذلك إن الشعوب التي تسكن وديان السهول أكثر أهمية؛ فالزراعة ذاتها تتضمن الاستقرار والكفّ عن حياة التجوال، وهي تتطلّب تبصراً بالأمور واهتماماً بالمستقبل: وهكذا يستيقظ التفكير في فكرة عامة؛ وها هنا يكمن مبدأ الملكية الخاصة والجهد المنتج ولقد ارتفعت الصين، والهند، وبابل إلى مستوى الأرض الزراعية من هذا النوع لكن بما أن الشعوب التي سكنت الأرض قد انغلقت على نفسها، ولم تأخذ لنفسها ذلك العنصر الحضاري الذي يقدمه البحر (أو لم تأخذه في بداية حضارتها على الأقل)ــ ولما كانت الملاحة البحرية التي قاموا بها ــ بالغا ما بلغ المدى الذي وصلت إليه ــ قد ظلت بغير أثر يذكر على ثقافتهم، فلم يكن من الممكن أن تكون لهم علاقة ببقية « التاريخ » إلاّ من خلال بحث الآخرين عنهم، ودراستهم لشخصياتهم. والواقع أن سلسلة الجبال العالية، والأرض المرتفعة ذاتها وسهول الوديان، تميز آسيا ماديا ومعنويا؛ ولكنها هي نفسها ليست عناصر تاريخية عينية وحقيقية. فالتقابل بين الطرفين القصيّين يُعترف به فحسب، ولكن لا تُبذل محاولة للتوفيق بينهما؛ فالامتيطان الثابت في السهول الخصبة لم يكن أمام

= علمية، بل قد تكون، في بعض الأحيان، مصادر تشتمل على قدر لا بأس به من التعصب، والغرور، والاستعلاء الأوروبي [المترجم].

www.aleppogate.com

سكان الجبال والأراضي المرتفعة الرحل، الدائمي الحركة، الذين لا يعرفون الاستقرار ـ أكثر من هدف يحاولونه باستمرار. وتكتسب السمات الفيزيقية التي توجد، طبيعياً، في حالة تميز، وحدة تتمثل في علاقة تاريخية جوهرية. وآسيا القريبة (من أوروبا)(٨٣)، تذيب هذين العنصرين في عنصر واحد، ومن ثم كانت لها علاقة بأوروبا؛ ذلك لأن أروع ما أتت به هذه الأرض لم تحتفظ به لنفسها وإنما بعثت به إلى أوروبا. فهي تمثل البداية الأولى لكل المباديء الدينية والسياسية، لكن أوروبا كانت مسرح تطور هذه المباديء ونموها.

والآن، نصل إلى أوروبا، فنلاحظ أنها لا تتسم بتلك التنوعات الفيزيقية التي لاحظناها في آسيا وأفريقيا. ويتضمن الطابع الأوروبي اختفاء التباين الذي يتمثل في التنوعات السابقة، أو على الأقل، تعديله. بحيث نجد أمامنا هنا خصائص أكثر اعتدالا وحالة انتقالية. فليس لدينا في أوروبا أراضي مرتفعة تقف في تضاد مباشر مع السهول؛ ولذلك فإن القطاعات الثلاثة في أوروبا تتطلب أساسا مختلفاً للتصنيف.

القطاع الأول هو أوروبا الجنوبية التي تطلّ على البحر الأبيض المتوسط. وإلى شمال البرانس توجد سلسلة جبال تسير عبر فرنسا وترتبط بجبال الألب التي تفصل إيطاليا عن فرنسا وألمانيا. وتنتمي اليونان كذلك إلى هذا الجزء من أوروبا ولقد كانت اليونان وإيطاليا تمثل مسرحا لتاريخ العالم خلال فترة طويلة. ولقد وجد روح العالم وطنه هنا عندما لم يكن وسط أوروبا وشمالها متمدينا.

والقطاع الثاني هو قلب أوروبا الذي فتحه قيصر حين غزا بلاد الغال Gaul ولقد كان هذا الفتح عملا رجوليا من جانب القائد الروماني، كما كان أخصب من ذلك الفتح الذي قام به الاسكندر في شبابه، حين أخذ على عاتقه الارتفاع بالشرق حتى يشارك في الحياة اليونانية، ولهذا فان إنجاز الاسكندر، رغم أنه في مضمونه أنبل وأجمل بالنسبة إلى الخيال، سرعان ما تلاشى بوصفه مجرد مثل أعلى. والبلاد الرئيسية في وسط أوروبا هذا هي: فرنسا، وألمانيا، وانجلترا.

وأخيراً فإن القطاع الثالث يتألف من دول شمال أوروبا: بولندا، وروسيا، والممالك السلافية. وهي لم تظهر إلاّ متأخرة في سلسلة الدول التاريخية وهي تكوّن

---

(٨٣) يقصد بلاد الشام والعراق، وما يُسمى «بالشرق الأدنى» [المترجم].

www.aleppogate.com

حلقة الوصل مع آسيا، وتحفظ هذا الاتصال. وفي مقابل الخصائص الفيزيقية للأقسام السابقة، فإن هذه، كما سبق أن أشرنا، لا تتمثل بدرجة ملحوظة بل تتوازن بعضها مع بعض.

www.aleppogate.com

تصنيف المعطيات التاريخية

لقد أشرنا إلى الملامح العامة لمجرى تاريخ العالم في الدراسة الجغرافية التي قمنا بها. إن الشمس ــ أو الضوء ــ تبزغ من الشرق، لكن الضوء ليس إلا وجوداً مشتملا على ذاته؛ ورغم أنه يملك، على هذا النحو، كلية في ذاته فإنه يوجد في الوقت نفسه بوصفه فردية في الشمس. وكثيراً ما صوّر الخيال لنفسه مشاعر رجل أعمى يجد نفسه « فجأة » وقد أصبح مبصراً، فيشاهد البريق الذي يشعه ضوء الفجر، كما يشاهد الضوء المتزايد، والتألق المتوهج لطلوع الشمس. إن أول شعور له هو نسيان، بغير حد، لشخصيته الفردية في هذا السناء الرائع المطلق ــ أعني الدهشة التامة. لكن عندما ترتفع الشمس تقل هذه الدهشة إذ يدرك الأشياء المحيطة به، ومنها ينتقل الفرد إلى تأمل أعماق وجوده الداخلي، وبذلك يحدث التقدم نحو إدراك العلاقة بينهما. ومن ثم فإن الإنسان ينتقل من التأمل الساكن الخامل إلى النشاط الإيجابي، وعند نهاية النهار يكون الإنسان قد شيّد بناء أسسه في أعماق شمسه الداخلية. وهو حين يتأمل في الماء هذه الشمس الداخلية يقدرها أعلى بكثير من الشمس الخارجية الأصلية، لأنه الآن يجد نفسه في علاقة واعية مع روحه، وهي لهذا السبب علاقة حرة. ونحن إذا ما وعينا في ذهننا هذه الصورة لوجدنا أنها ترمز إلى مجرى التاريخ، إلى عمل النهار العظيم للروح.

إن تاريخ العالم يتجه من الشرق إلى الغرب ، لأن أوروبا هي نهاية التاريخ على نحو مطلق، كما أن آسيا هي بدايته، فتاريخ العالم له شرق (حكمة الشرق هنا هي في ذاتها حد نسبي تماما) ــ إذ على الرغم من أن الأرض تشكل كرة فإن

www.aleppogate.com

ما أنجزه التاريخ لا يشكل دائرة حولها ـ لكن على العكس شرق محدد: هو أسيا. فها هنا تشرق الشمس الطبيعية الخارجية، وفي الغرب تغرب. وهنا بالمثل تشرق شمس الوعي الذاتي التي ينبعث منها بريق أسمى، وما تاريخ العالم إلاّ تدريب الإرادة الطبيعية الطليقة بحيث تطيع مبدأ كلياً وتكتسب حرية ذاتية، فالشرق لم يعرف، ولا يزال حتى اليوم لا يعرف سوى أن شخصا واحدا هو الحر، أمّا العالم اليوناني، والروماني فقد عرف أن البعض أحرار، على حين أن العالم الجرماني، عرف أن الكل أحرار. ومن ثم فان الشكل السياسي الأول الذي نلاحظه في التاريخ هو نظام الحكم الاستبدادي، والثاني هو نظام الحكم الديمقراطي الارستقراطي، والثالث هو نظام الحكم الملكي.

ولكي نفهم هذا التقسيم ينبغي علينا أن نلاحظ أنه لما كانت الدولة هي الحياة الروحية الكلية التي يرتبط معها الأفراد بمولدهم بعلاقة وثيقة، ويعتادونها، ويتمثل وجودهم وواقعهم الحقيقي فيها ـ فإن السؤال الأول هو ما إذا كانت حياتهم الفعلية هي عادات بغير فكر تربطهم بهذه الوحدة، أم أن هؤلاء الأفراد الذين يتألف منهم الدولة هم شخصيات مفكرة لها وجود ذاتي مستقل.

ومن وجهة النظر هذه، لا بدّ لنا أن نميز بين هذه الحرية الجوهرية (الموضوعية) وبين الحرية الذاتية، فالأولى هي العقل المجرد، غير المتطور الذي يوجد ضمناً في الإرادة، والذي ينتقل إلى تطوير نفسه في الدولة: لكن العقل في هذه المرحلة لا يزال يفتقر إلى البصيرة، والإرادة، والشخصية أعني إلى الحرية الذاتية، التي لا تتحقق بالفعل إلاّ في الفرد، والتي تمثل تفكير الفرد في ضميره الخاص(*). وحيثما تكون هناك حرية جوهرية فحسب، فإن الأوامر والقوانين يُنظر

(*) سبق أن أشار هيجل إلى أن ماهية الروح أو العقل هي « الحرية ». والحرية تعني الاستقلال أو التعين الذاتي، أو تحديد الإنسان لنفسه دون تدخل شيء من الخارج. وهنا تصل الروح إلى مرحلة النمو الناضج حين تكون مستقلة، وحين يصبح الفرد قانونا لنفسه «فتتحقق» حريته غير أننا نجد الإنسان في المراحل الدنيا من الأخلاق والحضارة يسقط هذا المبدأ التشريعي على بعض القوى الحاكمة سواء أكانت واحدة أم كثيرة ويطيعها كما لو كانت قوة غريبة وخارجية، لا صوتاً لتلك الروح التي يعتبر هو نفسه تجسيداً لها (على الرغم من أنه لا يكون في هذه المرحلة تجسيداً كاملا لها). ونعرض علينا فلسفة التاريخ المراحل المتتابعة التي يبلغ الإنسان عن طريقها مرحلة الوعي الذاتي، أعني المرحلة التي يعي فيها أن أعمق أعماق وجوده الخاص هو الذي يحكمه، أعني الوعي بالتعين الذاتي أو التحديد الذاتي، أو

www.aleppogate.com

إليها على أنها شيء ثابت محدد ومجرد، تخضع له الذات في عبودية مطلقة، ولا يتعين أن تتفق هذه القوانين مع رغبات الفرد، وبالتالي فإن المواطنين (أو الذوات) يكونون أشبه بالأطفال الذين يطيعون آباءهم بغير إرادتهم أو بصيرتهم الخاصة. لكن حين تظهر الحرية الذاتية ويهبط الإنسان من تأمل الواقع الخارجي إلى تأمل روحه الخاصة، حتى يظهر التباين الذي يوحي به التفكير متضمنا سلب الواقع. إن الارتداد عن العالم الفعلي يشكّل بذاته تضاداً: أحد طرفيه هو الوجود المطلق ــ أو الإله ــ والطرف الثاني هو الذات البشرية بوصفها فرداً. ولكن هذين الجانبين لا يكونان متميزين بعد في ذلك الوعي المباشر غير الانعكاسي الذي يتسم به الشرق ــ صحيح أن العالم يكون متميزاً عن الفرد، لكن التضاد لم يخلق بعد انقساما بين الروح (المطلقة والذاتية).

إن المرحلة الأولى التي يجب أن نبدأ منها هي الشرق. ويشكّل الوعي غير الانعكاسي[٨٤] أو الوجود الروحي الجوهري ــ أساساً لهذه المرحلة. وترتبط معه الإرادة الذاتية بعلاقة تتخذ في البداية شكل الإيمان، والثقة، والطاعة.

ونحن نجد في الحياة السياسية في الشرق حرية عقلية متحققة تعمل على تطوير نفسها دون أن تصل إلى مرتبة الحرية الذاتية، فتلك هي طفولة التاريخ. فالأشكال الجوهرية تؤلف الصروح الرائعة للامبراطوريات الشرقية التي نجد فيها جميع التنظيمات والأوامر العقلية، ولكن بطريقة يظلّ الأفراد فيها مجرد أحداث عارضة فحسب، إذ يدور هؤلاء الأفراد حول محور واحد هو: الحاكم، الذي يتربّع على رأس الدولة بوصفه أبا للجماعة Patriarch لا بوصفه مستبداً بالمعنى

= الاستقلال، أعني الوعي بالحرية. وعلى هذا النحو يصل الإنسان إلى أعلى مرحلة من مراحل تطوره حين يتعرّف بطريقة واعية على العقل الساري في التاريخ ويدرك بوضوح أنه هو عقله الخاص. (ناشر الطبعة الألمانية).

(٨٤) علينا أن نلاحظ باستمرار أن هيجل يربط بين « الفكر » و « الانعكاس » برباط وثيق (لاحظ أن الكلمة الدالة عليهما وهي Reflexion واحدة في الألمانية والانجليزية والفرنسية) ــ يقول هيجل في هذا المعنى: « تُستخدم كلمة الإنعكاس في الأصل حين يسقط شعاع من الضوء في خط مستقيم ليرتطم بسطح مرآة ويرتدّ عنها، ويكون لدينا في هذه الظاهرة شيئان: الأول: واقعة مباشرة موجودة. الثاني: الوجه المرتد أو المشتق لنفس الظاهرة. وشيء من هذا القبيل يحدث حين نفكر في موضوع ما، لأننا في هذه الحالة نريد أن نعرف الشيء لا في مباشرته بل على أنه مشتق أو متوسط ». موسوعة العلوم الفلسفية فقرة رقم ١١٢ إضافة، وقارن أيضا الموسوعة فقرة رقم ٢١، و٢٢، و٢٤ [المترجم].

www.aleppogate.com

الذي نجده في الدستور الامبراطوري الروماني، إذْ عليه أن يفرض ما هو جوهري وما هو أخلاقي بالقوة، كما يدعم تلك الأوامر الجوهرية القائمة في المجتمع بالفعل: بحيث أن ما ينتمي تماماً، في حالتنا نحن، إلى الحرية الذاتية، يصدر هنا عن التكوين العام والكامل للدولة. إن عظمة التصور الشرقي تكمن في الفرد الواحد بوصفه ذلك الوجود الجوهري الذي ينتمي إليه كل شيء، بحيث لا يكون لأي فرد آخر وجود منفصل، أو يرى نفسه منعكساً في مرآة حريته الذاتية. وإلى هذا الوجود المسيطر الذي تندمج فيه، أساساً، الحرية الذاتية، يُنسب كل ما في الطبيعة والخيال من ثراء. فالحرية الذاتية تبحث عن سموها لا في ذاتها، وإنما في ذلك الموضوع المطلق. وفي وسعنا أن نجد هنا جميع عناصر الدولة الكاملة، حتى عنصر الذاتية، لكنها لا تنسجم بعد مع الوجود الجوهري العظيم، ذلك لأنه خارج نطاق السلطة الواحدة ــ التي لا يمكن لشيء أن يدعم لنفسه وجوداً مستقلا أمامها ــ لا يوجد سوى نزوة متمردة تطوف، كما تشاء، خارج حدود القوة المركزية، بلا هدف أو جدوى. ومن هنا فإننا نجد القبائل الهمجية تتدافع من الأرض المرتفعة وتنقض على البلاد التي تجدها، وتخربها، أو تستوطنها، وتتخلّ فيها عن حياتها الهمجية، لكنها في الحالتين تضيع بغير جدوى في الجوهري المركزي. ونظراً إلى أن هذه المرحلة من الجوهرية لم تستوعب في جوفها نقيضها وتتجاوزه، فإنها تنقسم مباشرة إلى عنصرين: ففي أحدهما نجد الاستقرار والدوام ــ أعني امبراطوريات تنتمي، إنْ جاز التعبير، إلى المكان المحض (كشيء متميز عن الزمان) وتاريخاً لا تاريخيا (أو تاريخ ما لا تاريخ له)، كما الحال مثلا في الصين، أي الدولة التي تأسست على علاقة الأسرة ــ أو الحكومة الأبوية التي تحفظ التنظيم الإجتماعي برعايتها الحكيمة المتبصرة، وألوان النصح والتحذير، ثم بالعقوبات الجزائية أو بالأحرى التأديبية ــ وهي إمبراطورية ساذجة، لأنها نقيض الصورة أعني اللانهائية، والمثالية الفكرية لم تؤكد ذاتها فيها بعد. ثم هناك من ناحية أخرى العنصر الثاني وهو صورة الزمان التي تقف في مقابل هذا الاستقرار المكاني، فالدول التي نتحدث عنها يتغيرّ موقفها بإزاء البعض باستمرار دون أن يطرأ عليها من الداخل أي تغير، دون أن يتغير مبدأ وجودها، فهي في صراع لا ينقطع يجلب لها دماراً سريعاً. وفي هذه العلاقات المتصارعة، يدخل المبدأ المضاد، وهو مبدأ الفردية، لكنه هو نفسه يظل حتى الآن كلية غير واعية طبيعية محض ــ فهو الضوء الذي لم يصبح بعد ضوء النفس الشخصية. فهذا التاريخ أيضا (أعني تاريخ الصراعات السالفة الذكر) هو في الجانب الأكبر منه

www.aleppogate.com

غير تاريخي لأنه ليس إلاّ تكراراً لنفس الخراب المهيب. والعنصر الجديد، الذي يتخذ شكل الشجاعة، والبسالة، والشهامة، ويحلّ محل الأبهة الاستبدادية السابقة، يسلك بدوره طريق الدمار والانهيار نفسه. ومن ثم فإن هذا الانهيار ليس انهياراً حقيقياً، إذْ لا يحدث أي تقدم خلال كل ذلك التغير الدائم التقلب. وعند هذه النقطة ينتقل التاريخ ــ بطريقة خارجية فحسب ــ أعني دون ارتباط بالمرحلة السابقة ــ إلى آسيا الوسطى. وإذا ما واصلنا عملية مقارنة مراحل التاريخ بأعمار الانسان الفرد لكان علينا أن نقول إن هذه المرحلة هي مرحلة الصبا في التاريخ، فلا نجدها تعبر عن الهدوء والارتكان المميز للطفل، وإنما هي حافلة بالشجار والعراك. وبعد ذلك يمكننا أن نشبه العالم اليوناني بمرحلة المراهقة. ذلك لأننا نجد فرديات تتشكل، وهذا هو المبدأ الرئيسي الثاني في التاريخ البشري. فهنا تكون الأخلاق مبدأ، كما كانت في آسيا، ولكنها أخلاق تعبر عن الفرد، وتدل بالتالي على إرادة الأفراد الحرة. فهنا، إذن، وحدة بين الاخلاق والارادة الذاتية، أو مملكة الحرية الجميلة، «لأن الفكرة» قد اتحدت بصورة تشكيلية. فالفكرة لا يُنظَر إليها هنا، بعد، بطريقة تجريدية. وإنما هي ترتبط مباشرة بالواقعي، كما هي الحال في العمل الجميل للفن، والمحسوس يحمل طابع الروحي ويعبر عنه، وبالتالي فإن هذه المملكة هي مملكة الانسجام الحقيقي، وهي عالم أكثر الزهور فتنة وسحراً، لكنها أسرعها إلى الذبول، إنها المشاهدة الطبيعية غير المفكرة لما يصير أخلاقا، وإنْ لم يصبح بعد أخلاقاً حقيقية. فالإرادة الفردية للذات تتبنى، بلا فكر، السلوك والعادات التي يأمر بها العدل والقانون. ومن ثم فإن الفرد يكون في وحدة غير واعية مع «الفكرة» ــ أعني مع الصالح العام. وهنا يتلاقى مع ما كان منقسماً في الشرق إلى طرفين قصيين ــ أعني الجوهري بما هو كذلك، والفردية التي يمتصها في جوفه. لكن هذين المبدأين المتميزين لا يتحدان إلاّ بطريقة مباشرة فحسب، وبالتالي فهما يتضمنان أعلى درجة من التناقض: ذلك لأن الأخلاق الجمالية لم تمر بعد بمرحلة صراع الحرية الذاتية في مولدها الثاني، أو معموديته Palingenesis، إنها لم تتطهر بعد إلى الحد الذي تصل فيه إلى بلوغ الذاتية الحرة، التي هي الماهية الحقيقية للأخلاقية.

والمرحلة الثالثة هي مملكة الكلية المجردة (التي تمتص فيها الغاية الاجتماعية في داخلها جميع الغايات الفردية): إنها الدولة الرومانية، وهي الجهد الشاق الذي يبذله التاريخ في رحلته. ذلك لأن الرحلة الحقة لا تسلك وفقاً لنزوة حاكم

www.aleppogate.com

مستبد، ولا تساير نزوة رقيقة خاصة، بل هي تعمل من أجل غاية عامة، غاية يفنى فيها الفرد، بحيث لا يتحقق هدفه الخاص إلاّ في ذلك الهدف العام فحسب. وهنا تبدأ الدولة في أن يكون لها وجود مجرد، وفي تطوير نفسها من أجل هدف محدد، وهو هدف يشارك أفرادها في تحقيقه بالفعل، وإنْ لم يكن هدفاً كاملا، وعينيا (تحتاج المشاركة فيه إلى وجودهم كله). ويُضحّى بالأفراد الأحرار على مذبح المطالب القاسية للأهداف القومية، التي لا بدّ أن يستسلموا لها لخدمة هذا التعميم المجرد. فالدولة الرومانية ليست ترديداً لدولة الأفراد التي كانت عليها دولة المدينة في أثينا. فقد حلّ محل الروح اللطيفة المرحة التي كانت موجودة في أثينا عمل شاق مضن. وانفصل اهتمام التاريخ عن الأفراد، لكنهم ظفروا لأنفسهم بكلية صورية مجردة، فالكلي يخضع الأفراد لامرته بحيث يكون عليهم أن يدمجوا فيه مصالحهم الشخصية الخاصة. لكن في مقابل ذلك يُعرف بالتجريد الذي يجسده الأفراد أنفسهم، أي بشخصيتهم: فهم، بوصفهم أفراداً، يصبحون شخصيات لها ــ بما هي كذلك ــ حقوق مؤكدة. وبنفس المعنى الذي يمكن أن يُقال فيه إن الأفراد يندمجون في فكرة الشخص المجردة، يتعين على الفرديات الوطنية (من أمثال المقاطعات الرومانية) أن تمر كذلك بهذا المصير: ففي صورة الكلية هذه تستحق صورها العينية وتتجسّد فيها ككتلة لا تمايز فيها. وأصبحت روما بانثيونا Pantheon لجميع الآلهة، ولكل وجود روحي. لكن هذه الآلهة، وهذه الروح لا تحافظ على حيويتها الخاصة. ويسير تقدم الامبراطورية الرومانية في اتجاهين: فهي من ناحية، من حيث هي مرتكزة على التفكير الإنعكاسي، أعني على الكلية المجردة، تحوي في داخلها التعارض الصريح الواضح، وهي بذلك تشتمل في داخلها أساس الكفاح أو الصراع الذي يفترضه هذا التعارض، فتكون النتيجة الضرورية هي أن النزوة الفردية، أو القوة المعارضة الخالصة والدنيوية تماماً لحاكم مستبد واحد، تصبح لها الغلبة على ذلك المبدأ الكلي المجرد. ففي البداية الأولى نجد لدينا تعارضاً بين غاية الدولة، كمبدأ كلي مجرد من ناحية، والشخصية المجردة للفرد من ناحية أخرى. لكن عندما ينعقد لواء السيادة الفردية بعد ذلك خلال تطور التاريخ، ولا يعود من الممكن الحد من تفكك المجتمع إلى الذرات التي يتكون منها إلاّ بالقهر الخارجي، عندئذ تظهر القوة الذاتية للاستبداد الفردي لتلعب دورها كما لو كانت مدعوة لتحقيق هذه المهمة. ذلك لأن الإذعان المجرد الخالص للقانون من جانب الذات الخاضعة يفترض أنها لم تصل بعد إلى مرحلة التنظيم الذاتي أو ضبط الذات. ومبدأ الطاعة هذا، بدلا من أن يكون ــ

www.aleppogate.com

قلبيا وإراديا ــ لا تكون له قوة محركة ومسيطرة سوى الميل الاعتباطي العَرَضي للفرد، بحيث يجد الفرد لزاماً عليه أن يلتمس عزاءً عن ضياع حريته في ممارسة حقه الخاص وتأكيده، وهذه هي المصالحة الدنيوية Weltlich الخالصة بين طرفي التعارض. لكن المرء يبدأ في الشعور بما يحدثه الاستبداد من أذى، وترتدُّ الروح إلى أعمق أعماقها، مخلفة العالم المجدف، باحثة عن الوئام في ذاتها، وتبدأ الآن حياة داخلية، أي ذاتية عينية كاملة لها في الوقت نفسه جوهرية لا تتأسس على الوجود الخارجي المحض ومن ثمّ ففي داخل الروح تتم التهدئة الروحية للصراع، من حيث أن الشخصية الفردية، بدلا من أن تنقاد لاختيارها العشوائي تتطهر وترتفع إلى مستوى الكلية ــ وتصبح ذاتية تتبنى من إرادتها الحرة الخاصة مبادىء تنحو نحو خير الجميع ــ وتصل، في الواقع، مرتبة الشخصية الإلهية. وهكذا تتخذ هذه الذاتية الروحية إزاء المملكة الدنيوية التي تحدثنا عنها من قبل، موقف المعارضة أساساً، بوصفها مملكة ذاتية وصلت إلى المعرفة بذاتها ــ ذاتها في طبيعتها الجوهرية ــ أعني مملكة الروح بمعناها الكامل.

ويظهر العالم الجرماني عند هذه اللحظة من لحظات التطور بوصفه المرحلة الرابعة من تاريخ العالم. وإذا ما قارنا بين هذه المرحلة وبين مراحل الحياة البشرية لوجدنا أنها تقابل مرحلة الشيخوخة. وإذا كانت الشيخوخة في الطبيعة تعني الضعف والهرم، فإن شيخوخة الروح تعني نضجها وقوتها الكاملة التي تعود فيها إلى الوحدة مع نفسها، لكن في طابعها المكتمل النمو بوصفها روحا. وتبدأ هذه المرحلة الرابعة بالمصالحة التي تمثلها المسيحية، لكنها ليست إلاّ بذرة فحسب بغير تطور سياسي أو قومي، ومن ثمّ فلا بدّ من أن ننظر إليها على أنها تبدأ بالأحرى من التعارض الهائل بين المبدأ الديني الروحي، وبين العالم الواقعي البربري. ذلك لأن الروح، بوصفها الوعي بعالم باطن، تكون هي ذاتها، في البداية، على صورة مجردة. ومن ثم فإن كل ما هو دنيوي يستسلم للفظاظة والعنف الأهوج. ويعتبر المبدأ الاسلامي ــ أو روح التنوير في العالم الشرقي ــ أول مبدأ يقف في وجه البربرية، وهذه النزوة. ونحن نجده يطوّر نفسه بعد المسيحية، وبطريقة أسرع منها، ذلك لأن المسيحية احتاجت إلى ثمانية قرون لكي تنمو وتصل إلى شكل سياسي. أمّا مبدأ العالم الجرماني (الذي نناقشه الآن)، فلم يصل إلى مرحلة الواقع العيني إلاّ بواسطة الأمم الجرمانية؛ وهنا أيضاً يتمثل ذلك التعارض بين المبدأ الأخلاقي geistig في مملكة الروح geistlich وبين البربرية الوحشية الفظة في

www.aleppogate.com

مملكة الزمان. وإذا كان من الواجب على المملكة الدنيوية (مملكة الزمان) أن تنسجم مع المبدأ الروحي، فإننا لا نجد هنا شيئا سوى الاعتراف بهذا الوجوب فحسب. فلا بدّ للقوة الدنيوية التي تخلّت عنها الروح أن تتلاشى أولا أمام القوة الكنسية (بوصفها ممثلة للروح). لكن كلما هبطت الأخيرة (الكنيسة) وانحطّ قدرها إلى درجة الدنيوية المحض، فقدت أثرها بضياع طابعها المميز ورسالتها الخاصة، ومن هذا الفساد للعنصر الكنسي تنتج الصورة العليا للفكر العقلي. وحين ترتدّ الروح إلى نفسها تنتج نتاجها في إطار عقلي، وتصبح قادرة على تحقيق المثل الأعلى للعقل من المبدأ الدنيوي وحده. وهكذا حدث ــ بفضل عناصر الكلية التي تتخذ من مبدأ الروح أساساً لها ــ أنْ أُقيمت مملكة الفكر على نحو فعلي وعيني، وتلاشى التعارض بين الكنيسة والدولة، وعاد الروحي إلى الارتباط بالدنيوي، وغا هذا الأخير بوصفه وجودا عضوياً قائما بذاته، ولم تعد الدولة تشغل مركزا أدنى من الكنيسة ولا خاضعاً لها، كما أن الكنيسة لا تحتفظ لنفسها بميزات خاصة، ولا يُعدّ الروحي عنصرا غريباً عن الدولة. فالحرية قد وجدت الوسائل التي تحقق بها مثلها الأعلى ــ أعني وجودها الحقيقي. وتلك هي النتيجة النهائية التي يتجه مسار التاريخ إلى إنجازها. وعلينا أن ندرس بالتفصيل ذلك الطريق الطويل الذي نتبعناه هنا بطريقة عجلى. ومع ذلك فطول الزمان مسألة نسبية بحت،، لأن الروح تنتمي إلى الأبدية، ومن ثمّ لم يكن الامتداد الزمني ــ إذا شئنا الدقة ــ منتمياً إليها.

www.aleppogate.com

الفهرس

مقدمة عامة بقلم المترجم ٥

أولاً ـ هيجل: حياته ومؤلفاته ٧

ثانياً ـ عصر هيجل ١٩

ثالثاً ـ دراسة لفلسفة التاريخ ٣٠

تصدير الطبعة الألمانية الثانية ٦١

مدخل ٦٥

الأساس الجغرافي لتاريخ العالم ١٥٧

تصنيف المعطيات التاريخية ١٨٦